367

HARLEQUIN

روايات أحلام

الليل والنجمة

هيلين بروكس

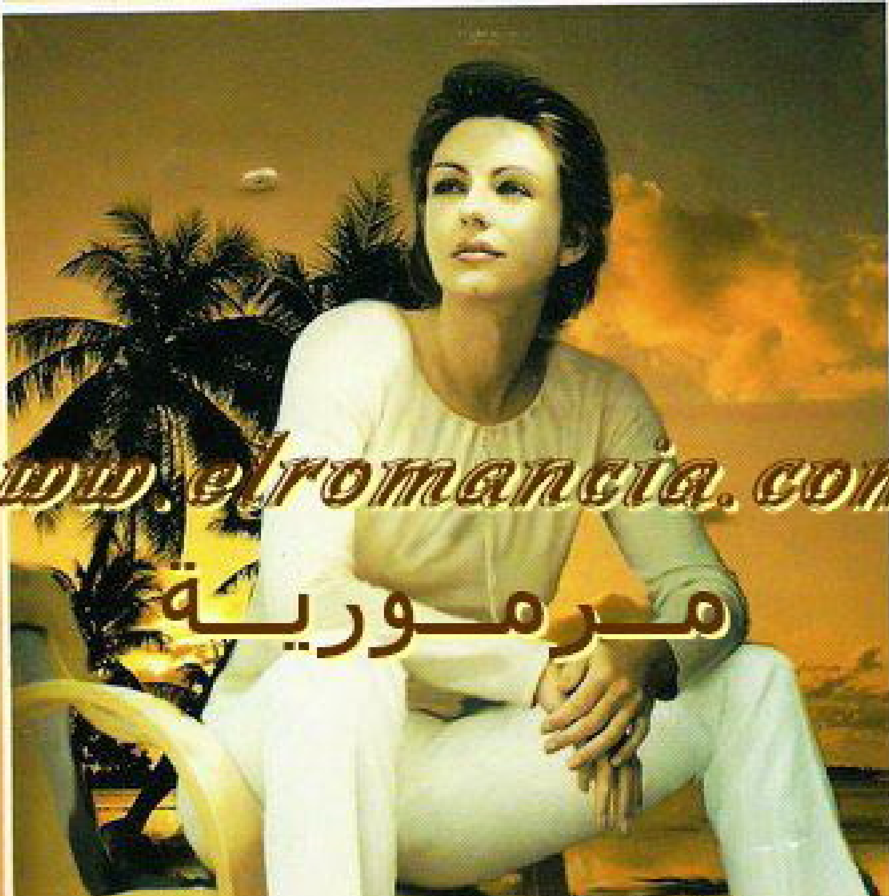

www.elromancia.com

مرمورية

الليل والنجمة

يحب كارتر بليك التحديات على أنواعها . وهو معتاد على التعامل معها بطريقته الخاصة . . .

فهو لم يجمع ثروته الطائلة إلا لأنه لا يقبل أن يرفض له طلب . وما إن وقع نظره على ليبرتي فوكس حتى علم بضرورة الحصول عليها . . . ولشدة عجبه وجد أن إغواء تلك المرأة أمر صعب للغاية .

عليه أن يعلم لما تبعده عنها ؛ ولماذا لا تثق به ؛

فما أدراه أنها لا تطلب سوى أن يتخلى عن حياة العزوبية التي يتقن فنونها ويدخل إلى فضاء حب جديد حيث هو مجرد مبتدىء !

هيلين بروكس

تعيش هيلين بروكس في (نورثامبتون شير) وهي متزوجة وأم لثلاثة أولاد. أوقات فراغها نادرة جداً، فهي متدينة ملتزمة وربة منزل منهمكة وأم مثالية. لكن هواياتها تشمل القراءة والسباحة والاهتمام بالحديقة والسير مع كلابها الصغيرة النشيطة التي تحبها كثيراً. حققت حلمها بالكتابة في سن الأربعين، وأرسلت أول إنتاج لها إلى (ميلز أند بونز).

١ - يوم غريب

- لا أصدق أنك تخليت عن ذلك الرجل الرائع. لو أن هناك عدالة في العالم لجاء إليّ ملتمساً المواساة. . . ذلك الحمل الوديع.

نظرت ليبرتي فوكس إلى أمها بعينين نصف مغمضتين، وهي تستلقي على الأريكة الجلدية التبنية اللون في تلك الغرفة المؤثثة بأحدث طراز، ثم قالت بصوت ساخر: «أيمكننا أن نلتزم بالحقيقة هنا؟».

كانت تعلم أن اللهجة والجواب الباردين يزعجان أمها، فكبحت استياءها.

- جيرارد بوسكليه ليس حملاً وديعاً، يا أمي. لقد ضبطته متلبساً، فأنهيت علاقتنا.

- لكنك قلت إنه جاء حتى عتبة بابك حاملاً الزهور والشوكولا، معلناً ندمه، واعداً بألا يخدعك مرة أخرى. لِمَ لم تمنحيه فرصة أخرى؟ إنه بالغ الوسامة.

أظهرت ليبرتي عدم الاكتراث لحظة قبل أن تستقيم في جلستها وتتناول فنجان القهوة، ثم تقول ببرودة: «الوسيم وسيم بعمله».

فقالت ميراندا ووكر: «أنا لا أفهم ما تقولينه أكثر مما أفهمك. (الوسيم وسيم بعمله) ماذا يعني هذا بحق الله؟».

- هذا يعني أن جيرارد أصبح الآن تاريخاً مضى. بالنسبة إليّ، الإخلاص إلزامي وليس اختيارياً.

- أنت متحذلقة كأبيك.

حذرت ليبرتي نفسها، وهي ترشف قهوتها من أن تلسع أمها بجواب حاد، لأن هذا ما تسعى إليه. فأمها إذا فشلت في إثبات وجهة نظرها تعرف كيف تضربها على وتر حساس بالحديث عن زوجها الأول، والد ليبرتي، بتلك اللهجة اللاذعة. تنفست الفتاة بعمق قبل أن تقول بهدوء: «أن أقارن بأبي هو أمر لا بأس به بالنسبة إليّ، يا أمي».

فقالت ميراندا بشيء من الشراسة: «لا أشك في ذلك. لو كنت أنا من تقارنين به، لاختلف الأمر».

لم تشأ أن تخوض في هذا اليوم، وهي لا تزال حساسة بسبب خيانة جيرارد.

وضعت ساقاً على ساق ثم أنهت قهوتها وأكلت حبة شوكولا. في وقت كهذا، تحتاج إلى مواساة الشوكولا، أما «الريجيم» فيمكنه أن ينتظر.

تذوقت القطعة متلذذة، ثم قالت: «نحن لسنا متماثلتين يا أمي. لم نكن كذلك قط».

- هذا صحيح.

ساد صمت مليء بالإتهام قبل أن ترفع ليبرتي بصرها لتنظر إلى هذه المرأة ذات الشباب المحيّر التي ترمقها بغيظ واضح. لم تكن ميراندا تبدو فوق الثلاثين بيوم واحد... بالرغم من أن عيد ميلادها الخمسين سيحل بعد أشهر. فجراحات التجميل ضمنت لها وجهاً وقواماً تتلهف إليهما معظم ممثلات السينما... ولم يكن ثمة شك في أن تلك الشقراء الصغيرة الجسم التي تنظر إليها الآن بعداء واضح، بإمكانها أن تدير رأس أي رجل.

ببشرة عاجية ناعمة كالخزف الصيني، وشعر طبيعي الشقرة وعينين زرقاوين عميقتين في وجه بشكل القلب، حصلت ميراندا على كل ما تريد. كما أنها حصلت على خمسة أزواج، وتكاد تطلّق الخامس الذي اعترض على

مطالبتها بنصف ثروته. وقد أدهش ليبرتي ألا يتوقع شيئاً كهذا، فأمها تزداد غنى مع كل زواج ناجح. كانت قد تركت زوجها الأول، والد ليبرتي، من أجل رجل ثري، ومنذ ذلك الحين لم تنظر إلى الخلف.

- عليّ أن أذهب.

ونهضت ليبرتي وحذاؤها يغوص في السجادة السميكة فيذكرها بالغوص في الوحل. لقد ابتهجت أمها بهذه الشقة الأسطورية المترفة المؤلفة من الزجاج ومعدن «الكروم» والمطلة على نهر التايمس. لكن ليبرتي رأتها أشبه بحوض السمك الذهبي الزجاجي. كان حوضاً ذهبياً غالي الثمن، لكنه يبقى حوضاً ذهبياً للسمك.

- لدي موعد في الساعة الثانية.

حرّكت أمها أنفها باشمئزاز: «أظن أنها إحدى قضاياك الفظيعة».

- نعم. إنه عمل.

لم تفهم أمها قط ما الذي جعل ابنتها تتخذ المحاماة مهنة لها بدلاً من أن تجد لنفسها زوجاً ثرياً.

قالت أمها بنكد: «ماذا أقول لجيرارد إذا حدث وصادفته؟ فأنت تذكرين أنك تعرفت إليه في إحدى حفلات عشائي».

إنها المرة الأولى التي تخرج فيها مع شخص من محيط أمها، وهي الأخيرة من دون شك: «اسأليه عن حال ألكسيا ليمير. وإذا صعب عليه تذكر الإسم، أخبريه أنها المرأة التي كان يشاركها السرير عندما ذهبت إلى شقته على غفلة».

فقالت الأم باستخفاف: «هذه الأمور تحدث للرجال ذوي الدم الحار مثل جيرارد، وهي لا تعني شيئاً».

لكن قاموس ليبرتي لا يضم كلمة خيانة: «وداعاً يا أمي... سأتحدث إليك قريباً».

وسارت ليبرتي إلى الباب بعد أن قبّلت أمها على خديها، وهو العناق الوحيد الذي تسمح به. وفي الخارج، وقفت ليبرتي لحظة تتنشّق بعمق هواء المدينة المثقل بالروائح المنبعثة من السيارات، لكنها تفضله على محيط أمها المعطّر الحار.

في سيارتها الصغيرة، شعرت بالتحسن، زياراتها لأمها تصيبها دوماً بالغثيان إذ تثير فيها الذكريات والمشاعر. جلست لحظة مسندة رأسها إلى عجلة القيادة، تلتمس بعض الهدوء. حتى هذه السيارة، هديتها إلى نفسها في عيد ميلادها الثلاثين منذ ستة أشهر، سببت لها جدالاً مع أمها.

لم تفهم ميراندا لماذا لم تختر سيارة رياضية أو سيارة حديثة الطراز. وعندما شرحت لها ليبرتي أنها أرادت سيارة جيدة يمكنها أن تأخذها إلى أي مكان، ضاع هذا الشرح سدى في أمها.

وربتت ليبرتي على السيارة قائلة: «مهما كنت فأنا أحبك».

قالت هذا فيما أفكارها لا تزال عند تلك المرأة البالغة الأناقة، في تلك الشقة الأسطورية التي غادرتها لتوّها. ثم اندفعت في زحمة السير.

تصاعد صوت المكابح عند حدوث ارتطام جعل أسنانها تصطك وتدرك غلطتها حتى قبل أن يسجّل ذهنها أنها لم تتفقد مراياها.

جلست طويلاً وقد جمّدتها الصدمة قبل أن ترغم عقلها وجسدها على الحركة. عندما فتحت بابها رأت سائق السيارة الأخرى وهي مرسيدس زرقاء، فخمة.

وصل إليها حالما وقفت، وسألها باتزان: «هل أنت بخير؟».

نظر إليها بعينيه الرماديتين القاسيتين، فأدركت أن الرجل لم يكن كبيراً في السن كما ظنت في البداية، وأن الشعرات الرمادية في شعره الفاحم ضلّلتها، ما جعل ركبتيها ترتجفان.

سمعته يشتم بصوت خافت وهو يمسك بها قائلاً: «تنفسي بعمق مرات

عدة».

بعدئذ، فتح باب سيارتها وأجلسها بشكل جانبي. شعرت برأسها يندفع نحو ركبتيها لكنها لم تستطع المقاومة، وتلاشى شعورها بالغثيان.

لم تعرف كم بقيت بهذا الشكل، ولكن لم يتجاوز ذلك النصف دقيقة قبل أن يتوقف الدوار: «آسفة».

رأته يقف بالقرب منها، بينما تعالت أصوات أبواق السيارات في الخلف، واكتفى بالقول: «على مهل».

وكأنهما لم يكونا يسدّان معظم الطريق في أوج زحمة الظهيرة.

عندما استعادت صوتها، قالت بسرعة: «أنا... سأعود إلى الموقف. ربما بإمكانك أن توقف سيارتك في مكان قريب، ثم نتبادل أرقام الهاتف، وبذلك...».

– أتشعرين أنك قادرة على قيادة السيارة؟

رفعت رأسها ونظرت إلى وجهه لأول مرة. كان صوته جميلاً عميقاً ورزيناً تقريباً، من النوع الذي يلاقي نجاحاً هائلاً على الشاشة الفضية. بدا جذاباً بشكل غير تقليدي، فوجهه خشن بالنسبة لمقاييس الوسامة المعتادة. تمالكت نفسها بسرعة حين انتبهت إلى أنه ما زال ينتظر جوابها فقالت بسرعة: «نعم، نعم طبعاً. سأعود وحسب إلى الموقف الذي خرجت منه».

لم يقل شيئاً واكتفى برفع حاجبيه بشكل خفيف ما أوضح بالضبط رأيه في جرأتها على القيادة.

احمرت وجنتاها وهي تراه يعود إلى سيارته لكنها ما لبثت أن طردته من ذهنها وركّزت على العودة إلى المساحة الضيقة التي تركتها لتوّها. لا تستطيع أن تلومه إذا لم يبدِ إعجابه بقيادتها، فالاصطدام ذنبها هي كلياً. لماذا لم تستخدم مراياها؟ وتأوهت في داخلها.

عندما ركنت سيارتها في الموقف، شجعت نفسها على الخروج وتفحص

الضرر الذي حدث لسيارتها. رغم أنه انحرف بعنف ليتجنب الإصطدام بها، إلا أن المصباح الخلفي كان مهشماً وجانب السيارة متضرراً.

شعرت برغبة في البكاء لكنها عادت وانتصبت رافعة رأسها. لا بدّ أنه يعتقد أنها تشكّل خطراً على السائقين والمشاة، لذا ستعفيه من رؤية دموعها تسيل على خدّيها، فتكتمل لديه الصورة.

تناولت حقيبة يدها وأخذت تبحث فيها عن بوليصة التأمين لتكتشف أنها تركتها في الحقيبة التي استعملتها أمس. فهي تحرص دوماً، على أدق تفاصيل أناقتها حين تزور أمها، والحقيبة السوداء التي تحملها اليوم لا تتسع لشيء. عظيم. يا له من يوم! وبلعت ريقها بصعوبة.

أخذت تنظر إليه وهو يقترب منها بعدم مبالاة تقارب الغطرسة ما ينبئ بعلو شأنه في هذه الحياة. لم يكن مسرعاً لكن ساقيه الطويلتين طوتا المسافة بينهما بغمضة عين. كانت قامته خلابة. جاءتها هذه الفكرة من حيث لا تدري فصدمتها وجعلتها تخفض بصرها. وعندما وقف بجانبها، ادّعت الانشغال بالبحث عن أوراقها.

- هل من مشكلة؟

- نعم مع الأسف. يبدو أني تركت بوليصة التأمين في حقيبتي الأخرى.

هذه المرة كانت مستعدة وهي تنظر إليه فلم تدع نظراته الصوانيّة تؤثر فيها.

أومأ برأسه. ورأت منزعجة، أنها لم تكن إيماءة لطيفة بل تعني أنه توقّع شيئاً كهذا. قالت بسرعة: «أستطيع أن أعطيك اسمي وعنواني ورقم التأمين. أعلم أن الغلطة غلطتي أنا تماماً... هل تضررت سيارتك؟».

رأت نفسها تثرثر كالأطفال لكنها لم تستطع منع نفسها، بينما قال باختصار: «لا».

ونظر إليها بعينين ضيقتين متأملتين ثم أضاف: «ألا تعلمين أن من الخطأ

الاعتراف بالمسؤولية؟».

لم تستطع أن تخفي انزعاجها فقالت بحدة: «أنا لا ألعب يا سيد...».

- بليك. كارتر بليك.

- أنا لا ألعب يا سيد بليك. الاصطدام غلطتي وأنا مسرورة لأنّ أحداً لم يتضرر. إنني مستعدة تماماً لتحمّل المسؤولية.

فقال بابتسامة خفيفة سرعان ما اختفت: «هذه صفة غير عادية في يومنا هذا وعصرنا هذا».

ولم يبد عليه أي اهتمام بانزعاجها منه.

وافقته الرأي فعملها يؤكد هذا الواقع المحزن يومياً. وتذكّرت فجأة القلم الذي تحمله في حقيبة يدها... كان ثميناً مصنوعاً من الذهب وقد قدّمته لها أمها في عيد الميلاد منذ سنوات، وهو مثالي لإعطاء فكرة أنها فتاة ثرية مرفهة. إنها حمقاء، حمقاء، حمقاء!

- هل لديك اسم؟

ومدّ يده مصافحاً فاستيقظت من أحلامها، وأجابت لاهثة وهي تضع يدها في يده العريضة: «ليبرتي فوكس».

لم يطل المصافحة لكنها شعرت بتأثيرها فهزّت كيانها كالصدمة الكهربائية: «دعيني أعطيك بطاقتي يا ليبرتي».

ومدّ يده إلى جيبه يخرج بطاقة عمل صغيرة وقال بنعومة: «لماذا لا تتصلين بي في ما بعد حين يكون لدينا وقت، نحن الإثنين؟».

- ولكن...

وسكتت لا تدري ما تقول، فرفع حاجبيه: «نعم؟».

- ألا تريد رقم هاتفي؟ عنواني؟ معلومات عن السيارة، أي شيء؟

لوى شفتيه الحازمتين: «سبق وأخبرتني أنك ستتحملين المسؤولية بالنسبة لهذا الحادث».

- لكنك لا تعرفني، ولعلي كاذبة. ربما كنت من النوع الذي يحرص على ألا تراه أو تسمع عنه خبراً مرة أخرى.

تمتم وهو يتأملها متسلياً: «لا أظن ذلك».

ظنها في البداية عادية الشكل، لكنه كان مخطئاً. فبدلاً من أن تكون عنيفة مصرة على حقوقها، تحدث الفم الممتلىء الناعم والعينان البنيتان القلقتان عن امرأة حقيقية خلف لباسها الأنيق وتسريحة شعرها الحازمة. كم يبلغ طول شعرها؟ وانتقلت عيناه إلى ضفيرة شعرها الغليظة الملتفة عند مؤخرة رأسها. بدا اللون رائعاً، فهو بني يميل إلى الحمرة، يتعارض مع لون بشرتها الأبيض كالقشدة.

تحرّك مشاعره المفاجىء أدهشه، فقاطع أفكاره بقسوة أصبحت عادة لديه. لقد مضى وقت طويل منذ شعر بمثل هذا الانجذاب نحو امرأة لا يعرفها، ما جعله يشعر بعدم الارتياح. فهو يفضّل أن تبقى علاقاته تحت سيطرته منذ البداية حتى النهاية. إنه في السادسة والثلاثين وهذا يعني أنه تجاوز مرحلة الرغبة العمياء منذ وقت طويل.

تراجع خطوة وهو يقول: «أثبتي صحة حدسي فيك، إتفقنا؟ إذا لم تتصلي بي فسأعتبر ما حصل من ضمن تجاربي في الحياة، ولن أعير الأمر أهمية. لكنني تأخرت الآن عن موعد هام وعليّ أن أذهب».

- هذا حسن.

أعجبه أن يأخذها على حين غرّة ورأت هذا واضحاً في شبه الابتسامة على زاويتي فمه. كرهت شعوره بالرضا بقدر ما كرهت السخرية في عينيه. إنه يستحق منها ألا تتصل به، كما أخذت تحدث نفسها بغضب وقد توترت شفتاها. يبدو أنه يتوقع موافقة الجنس البشري كله على آرائه.

- إتفقنا إذن.

وابتسم لها ابتسامة تعني (لا يهمني ما تفعلينه) فتوترت كل عضلة فيها،

ثم قال: «الوداع يا آنسة فوكس».

آنسة فوكس؟ أين ذهب اسمها ليبرتي إذن؟ كانت مشغولة بالتفكير في الأمر فلم تدرك إلا بعد وقت طويل أنه نظر من دون شك إلى يدها ليتأكد من أنها لا تضع خاتم الزواج. وكان قد ابتعد بخطواته الواسعة عندما هتفت به متأخرة: «الوداع. وشكراً لتفهمك».

- التفهم هو اسمي الثاني.

قال كلماته هذه من دون أن يلتفت، ومع ذلك، أدركت من صوته أنه يبتسم.

كانت موضوع تسلية لهذا الرجل، كما أخذت تفكر بضيق، قبل أن تشعر بعذاب الضمير. معظم الناس في مركزه يغضبون جداً، أو حتى يظهرون لها العداء. أما هو فكان مهذباً بالرغم من أنها هي التي تسببت بالاصطدام الذي أخّره عن موعد هام. فلماذا هذا الشعور الفوري بالنفور؟ طرحت على نفسها هذا السؤال وهي تصعد إلى سيارتها، لترتاح في مقعدها وتغمض عينيها وهي تتنهد!

وعندما أخذ هاتفها يرن عادت إلى الواقع، فتناولته من حقيبتها وعرفت هوية المتصل قبل أن تجيب. إذا كان ثمة شخص في العالم تريد أن تتحدث إليه الآن فهو أبوها. في صغرها كان هو سندها وملجأها ومعزّيها، وأحسن صديق لديها.

لقد رعاها عندما تركتهما أمها، لتتزوج من ذلك المستثمر. كانت ليبرتي حينذاك في الثالثة من عمرها، فرفض وظيفة هامة في المستشفى لأنه كان الأم والأب لطفلته. ولم يشر بعدئذ قط، إلى أنها كانت عبئاً عليه أو أن وجودها معه شكّل عائقاً له عن مقابلة امرأة أخرى والزواج مرة ثانية.

وجدت نفسها تغالب دموعها وهي تتحدث إليه: «داد؟».

كان صوته بلسماً لروحها وهو يجيب: «مرحباً حبيبتي. هل تحبين أن

تتناولي العشاء مع الرجل العجوز الليلة؟».

- الليلة؟

تملكتها الدهشة، فقد اعتادا أن يتناولان غداء يوم الأحد معاً، واليوم هو الخميس. قالت بعد لحظة صمت: «يسرني هذا جداً، فقد صدمت السيارة لتوّي، ورؤيتك ستنتشلني من بؤسي».

- هل أنت بخير؟

الاهتمام في صوته أدفأ فؤادها، لكنه جعل دموعها تسيل مرة أخرى. واضطرت لأن تتنحنح قبل أن تقول: «أنا بخير يا أبي. لكن الغلطة غلطتي، فأنا لم أتفقد المرايا قبل أن أنطلق ما جعلني أتسبب بالحادث. صدمني الرجل المسكين من الخلف لكنه كان طيباً جداً. كنت عائدة لتوي من زيارة أمي».

- آه.

لم يكن بحاجة إلى أن يقول شيئاً آخر فهو يعلم كم تؤثر في هدوء أعصابها مثل هذه الاجتماعات. أرغمت صوتها على أن يبدو مرحاً لكي يطمئن إلى أنها بخير وسألته: «في أي وقت تريدني في البيت؟».

فقال بشيء من التردد: «لم أكن أقصد أن نأكل في البيت هذه الليلة. في الواقع أريدك أن تتعرفي إلى شخص ما، فرأيت أن يتم ذلك أثناء تناول العشاء في مكان ما».

أخذت ليبرتي تنظر إلى السماعة لحظة، فبالرغم من هدوء صوته، إلا أنه كان يخفي شيئاً من الإثارة... فسألته بحذر: «شخص ما؟».

- إنها صديقة قديمة... لا، ليس صديقة «قديمة» بالضبط. لا أدري هل تذكرين جوان أندروز، كانت تتدرب على التمريض عندما كنت أنت في الثامنة أو السابعة.

- نعم، أتذكر جوان.

كانت ممرضة متمرنة ذات جسم صغير وخدين حمراوين، وابتسامة عريضة. وتذكرت ليبرتي أن جوان وزوجها هاجرا إلى استراليا ومنها إلى نيوزيلاند. وقالت: «ظننتهما يعيشان خارج البلاد».

- هذا صحيح، الأمر هو...

وعندما سكت مرة أخرى، أخذت خفقات قلبها تتسارع. لقد تردد مرتين خلال دقيقة واحدة. هناك شيء ما، ماذا هناك؟ سألته لكن أباها لم يجب بشكل مباشر، بل قال: «كان زوج جوان مدمن كحول، ما دفعهما إلى الهجرة. كان لديه أخ هناك يملك مزرعة كبيرة وقد أبدى استعداداً أن يعيّن زوج جوان مديراً لها، فأملت أن يجعله هذا يتوقف عن شرب الكحول».

- وهل حدث ذلك؟

ولم تعرف لماذا يتحدثان عن زوج جوان.

- لفترة ثم عاد الرجل إلى الادمان بشكل أسوأ. وبقيت هي معه حتى النهاية بعد أن فتك المرض بكبده.

- حسناً؟ ماذا بعد؟

- كنا قد وقعنا في الحب، يا ليبرتي. طوال تلك السنوات التي مرّت... من الصعب التصديق أن ما مرّ هو أكثر من عقدين. كان لديها زوج لم تشأ أن تهجره، لئلا تتسبب بموته... وأنا...

قاطعته برقة: «كنت أنا لديك لترعاني».

فقال بسرعة: «أنت لم تكوني عائقاً لأن جوان كانت تحبك، فهي لم تستطع أن تنجب أولاداً. كان زوجها قد تعرض لحادث سير بعد زواجهما مباشرة، وأصيب إصابة بليغة تركته عاجزاً. يا للرجل المسكين! لعل هذا ما جعله يدمن على الكحول».

لم تعرف ليبرتي ما تقول. لم يكن لديها فكرة عن الحب الذي جمع بين أبيها وجوان بعضهما ببعض، لأنها كانت مجرد طفلة حينذاك. وحاولت أن

تحمل صوتها يبدو طبيعياً وهي تقول: «متى قابلتها آخر مرة؟».

- منذ يومين. دخلت قسم الجراحة ببساطة، وكان زوجها قد مات منذ ثلاثة أشهر، فعادت إلى انكلترا نهائياً. ما إن رأينا بعضنا البعض مرة أخرى حتى تملكنا شعور واحد وهو أن الفراق قوّى حبّنا.

صعب عليها تصديق ذلك. أن يحمل قلب أبيها حباً خفياً كل تلك السنوات؟ لكن هذا يفسر الكثير.

كان رجلاً وسيماً للغاية، فضلاً عن أنه طبيب. كانت ترى النساء يلتهمنه بأنظارهن على مرّ السنين، لكنه لم يهتم بهن قط. وها هي الآن تعرف السبب، جوان أندروز... وهزت رأسها بحيرة.

- أنا مسرورة لأجلك يا أبي.

كانت مسرورة فعلاً، بالرغم من خفقات قلبها الأنانية لدى إدراكها أنها لم تعد الشخص الأول في حياة أبيها.

- ستأتين لرؤيتها الليلة إذن؟

- طبعاً سآتي، وهذا يسرني جداً.

كذبت عليه بحماسة، فهي تحتاج فرصة أربع وعشرين ساعة لتتعوّد على فكرة أن أباها أصبحت له رفيقة بين ليلة وضحاها.

- عظيم، سيبهج هذا جوان، أظنها كانت قلقة قليلاً من أن تشعري أنها تأخذني منك.

وضحك بإحساس الأب الذي يظن أن ابنته على ما يرام، فبادلته الضحك وهي تقول: «لقد حان الوقت لتشاركك امرأة حياتك».

- شكراً يا حبيبتي.

وسكت لحظة ثم قال بصوت أجش: «هل يناسبك الساعة الثامنة في «فينيكس؟».

- «فينيكس؟».

هذا حب حقيقي. ففينيكس هو أحد أغلى أندية لندن الليلية الخاصة. قصدته ليبرتي مرة واحدة فقط في موعد كان صديقها يرجو من ورائه التأثير فيها. وكان ذلك الصديق يرجو أكثر من ذلك بكثير... وقد جُرحت كرامته عندما رفضت عرضه المتغطرس وأضافت إلى ذلك ما اعتبره إهانة لرجولته حين أرسلت إليه شيك بكلفة عشائها في اليوم التالي.

وقالت تداعبه: «سترتديان أجمل ما لديكما من ثياب، إذن؟».

- يمكنك أن تراهني على ذلك.

أخذ يضحك بصوت خافت كتلميذ مدرسة تملكته الحماسة: «إلى اللقاء. سأنتظرك أمام النادي و... شكراً مرة أخرى...».

لقد تحوّل هذا اليوم إلى يوم جنوني. وأمضت دقيقة في التفكير ملياً في كل ما قاله أبوها قبل أن تتحرك بالسيارة عائدة إلى مكتبها. لكن، أثناء الرحلة، لم يشغل أبوها وجوان أندروز عقلها، بل رجل طويل، عريض المنكبين بملامح خشنة وعينين بلون سماء عاصفة في الشتاء. وأدركت أنها ستتصل بكارتر بليك.

٢ - عينا غزالة

حدثت ليبرتي نفسها بأن عليها ألاّ تدهش إذا تعاقبت أحداث عصر هذا اليوم على نحو سريع ومثير وذلك بسبب ما شعرت به من نقص في طاقتها بعد عودتها من الغداء.

وفي السادسة، أعياها التعب وأضحت أعصابها مرهقة. ولو كان موعدها تلك الليلة مع شخص غير أبيها، لاتصلت تلغيه. وبدت لها فكرة أخذ حمام ساخن طويل والنوم باكراً، رائعة.

كانت من أواخر الذين غادروا المكتب في فانسبوري، شرق لندن. لكن هذا لم يكن غريباً، فهي تسعى لأن تصبح شريكاً في غضون السنوات الخمس التالية ولن يحدث ذلك ما لم تتعب وتكرسّ وقتاً في العمل. أعتادت أن تقصد عملها وتعود منه بواسطة مترو الأنفاق، لكنها، وبسبب موعد الغداء مع أمها، قررت أن تستخدم السيارة هذا الصباح. وعندما وقفت تتأملها في موقف السيارات، فكرت في أنّ شراء السيارة لم يكن أحد قراراتها الحكيمة. لكنها لا تستطيع أن تصلحها الآن بالذات. فلديها موعد على العشاء. وهكذا، يمكن للسيارة أن تنتظر.

قادت السيارة إلى البيت بحذر بالغ، واعية إلى أنها متعبة وأن اصطداماً آخر هو آخر ما تحتاجه. تحسّن مزاجها وهي تقف في الشارع الذي تحف به الأشجار في «وايتشابل» حيث اشترت حديثاً أول بيت لها.

بعد أن تركت كلية الحقوق، تدرّجت لسنتين في الشركة القضائية حيث تعمل حالياً بينما استمرت في العيش مع أبيها. ولكن عندما عرض عليها

عمل دائم شعرت بأن الوقت حان لتترك بيت أبيها وتبحث عن غرفة تستأجرها. ومع بداية السنة، وقعت على بيت صغير من طراز القرن السابع عشر.

كان الطابق الأرضي مؤلفاً من غرفة جلوس وغرفة نوم مع مطبخ وغرفة طعام وحمام. وخلف المنزل حديقة صغيرة لا تتسع لأكثر من طاولة صغيرة وكرسيين وعدد من أصص الأزهار حول بركة صغيرة.

كانت صاحبة المنزل قد تقاعدت وسافرت لتعيش مع أخت لها في كورنوال. وعلى الفور أعربت ليبرتي عن غرامها بالبيت ودفعت الثمن المطلوب كاملاً، واستقرت خلال شهر في بيتها الصغير مع عقد رهن ضخم يعني أن عليها أن تشدّ الحزام في المستقبل المنظور.

لكن البيت يستحق ذلك. عندما خرجت من السيارة انعكست أشعة شمس الخريف على زجاج نافذة غرفة الجلوس فأخذ يتألق ويلمع. نعم، إنه يستحق ذلك تماماً. صعدت الدرجات الثماني المؤدية إلى الباب الأمامي وقد ازدادت حيويتها. كانت مستقلة الشخصية وتتمتع باكتفاء ذاتي، ولن ترضى بأن تكون مدينة لأي رجل.

كان الباب الخارجي يؤدي مباشرة إلى غرفة الجلوس وهي غرفة مريحة ودافئة. بعد أن خلعت حذاءها من قدميها، استلقت على إحدى أريكتيها المنجدتين، المغطاتين بلون الفخار، ثم أغمضت عينيها. إنها تعشق هذه الغرفة فالستائر والسجادة البرتقالية اللون اللاتي اشترتها جميعاً مع البيت، يتناسب لونها تماماً مع لون الأريكتين اللتين كانت قد اشترتهما قبل البيت بعام أو نحوه، والمكتبة خلفها. أما المدفأة القديمة وغير العادية الشكل فمبهجة بشكل رائع.

لكن، ولسبب ما، لم يؤثر هذا السحر فيها الليلة. جلست مقطبة قليلاً. كارتر بليك، ذلك الرجل استولى على تفكيرها كما فعل طوال عصر هذا اليوم. يمكنها على أيّ حال، أن تتصل به الآن.

تناولت حقيبة يدها لتخرج بطاقته. كان سبق أن نظرت إليها، متوقعة بطاقة عمل رسمية، لكنها لم تجد سوى اسمه فقط مع رقمين، أحدهما لهاتف خلوي. فهل الثاني لبيته؟ حدقت إليه، وازداد تقطيبها متجاهلة تسارع خفقان قلبها.

ستتصل به وإذا لم يجب فستترك له رسالة على المجيب الآلي ثم تبدأ بالإستعداد. نظرت إلى ساعتها، فوجدت أن عليها أن تحجز سيارة أجرة لليلة قبل كل شيء.

حجزت السيارة. وشعرت بالغيظ من نفسها والحيرة في آن وهي ترى قلبها يخفق بعنف كلما فكرت في أن تتصل به.

تردد صدى صوتها في سكون الغرفة وهي تقول: تمالكي نفسك، يا ليبرتي، فهو مجرد رجل.

في السنوات الأخيرة، علّمتها الحياة أن الرجال، أمثال كارتر بليك، الرجال الجذابين الأقوياء متغطرسون، ومغرورون على الدوام.

لوت ملامحها. حسناً، لن تندفع للاتصال به، ستدع الأمر يوماً أو يومين، أو إلى غد على الأقل. الوقت لا يكفي لكي تغتسل وتستعد لليلة أبيها الكبرى...

عندما وصلت سيارة الأجرة كانت ليبرتي قد اغتسلت وسرّحت شعرها بشكل جعلها تختلف تماماً عن الآنسة فوكس الذكية الحازمة أثناء النهار. فهي نادراً ما تدع شعرها ينسدل على كتفيها، لكن منذ رمقتها عينان صوانيتان ورماديتان بنظرة باردة سريعة، تملكتها روح متمردة. كما أن نادي فينيكس يتطلّب مظهراً غير عادي. تسريحة شعرها الرزينة عادة، تغيرت فأصبح الآن يحيط بوجهها المزيّن في خصلات جعدة تصل إلى الكتفين. ثوب السهرة الكلاسيكي الأسود الذي ترتديه يوهم الناظر إليه بأنه محتشم حتى يلاحظ شقاً على جانب التنورة الضيقة. كان جيرارد قد حثّها على شراء هذا الثوب لترتديه في حفلة عشاء راقصة دعيا إليها وذلك قبل أن

تكتشف علاقته بتلك المدعوة أليكسيا. شعرت بالسرور لأنها ألحت حينذاك على أن تدفع ثمنه بنفسها، فمن المؤسف أن تتخلص من هذا الثوب الرائع لو كان جيرارد قد ساهم في ثمنه ولو بقرش واحد.

تفحصت مظهرها في المرآة لآخر مرة، عندما أطلقت سيارة الأجرة نفيرها مرة أخرى. شعرت بغصة في حلقها، لكنها ابتلعتها وقد احمرت عيناها البنّيتان وهي ترفع رأسها. جيرارد لا يستحق دمعة واحدة، فهو مخادع كذاب ومن حسن حظها أنها تخلصت منه.

وفي السيارة، أحكمت لفّ معطفها حولها، محاولة أن تتجاهل أن المشاة في الخارج يسيرون أزواجاً، ويبدو أن المطر تساقط قليلاً أثناء استعدادها للخروج لأن الأرصفة مبللة لامعة، تنتشر عليها هنا وهناك دوائر ذهبية حيث تنعكس أنوار الشارع لتطرد الظلمات.

أخذت ليبرتي تنظر من النافذة إلى حركة المرور والمشاة لكن دون أن تراها حقاً، فقد كانت تائهة مع أفكارها. لطالما عنّفت نفسها أثناء علاقتها بجيرارد التي دامت شهوراً، لعدم ثقتها بدوام تلك العلاقة، وحدّثت نفسها بأن تجربة أمها التي راحت تتنقل من رجل إلى آخر، جعلتها مشككة، لكن الأمر لم يكن كذلك في الواقع.

قطبت حاجبيها فيما راح عقلها يبحث عن مفتاح ريبها وشكوكها. لا يمكن إنكار وسامة جيرارد. كما أنه جذاب، ومسل، وغني ورفقته ممتعة، لكن فمه كان ضعيفاً. ففمه ينبيء بأن حياته كانت سهلة. لم يخطر لها ذلك من قبل لكنها أدركت أنها علمت ذلك في عقلها الباطن منذ ساعات، أي منذ نظرت إلى ملامح وجه كارتر بليك الخشنة. كان الرجلان، في الواقع، متناقضين تماماً.

تلوّت في مقعدها، شاعرة بضيق مفاجيء في نفسها. أتراها تعبث وهي تقارن بين الرجلين؟ لم تكن تريد أياً منهما في حياتها فلماذا تضيّع الوقت سدى في التفكير بهما؟ هذه الليلة مكرسة لأبيها وجوان.

أمام نادي فينيكس يشعر المار بطنين على الرصيف تحت قدميه. هذا النادي الفخم رائع بطعامه اللذيذ، والرقص والعروضات المسلّية التي يقدمها. كل ما فيه جيد، بحسب رأي ليبرتي. فقد ارتادت العديد من النوادي الليلية الفخمة في الماضي، لكنها لم تجد الكمال في أيّ منها كما وجدته في نادي فينيكس.

ما إنّ وطأت قدمها الرصيف حتى ظهر أبوها بجانبها وكأنه جني، وقد توهج وجهه حماسة وتألقت عيناه، فبدا أصغر من سنه بعشر سنوات.

قال وهو يأخذها بين ذراعيه: «أوووه. . . كم تبدين جميلة».

وعندما تركها لتتنفس، قالت له: «وأنت تبدو حسن المظهر للغاية».

وكان هذا صحيحاً تماماً، فشعره الذي كان بنياً ذات يوم أصبح الآن رمادي اللون لكنه بقي كثاً كحاله دوماً. أما القامة الطويلة، العريضة الكتفين فأصبحت نحيفة. لا بد أن المبلغ الذي أنفقته أمها لكي تبقى جميلة فتيّة أصبح من ستة أرقام الآن لكن مظهر أبيها يتحسن يوماً بعد يوم بشكل طبيعي.

قال أبوها وهو يتأبط ذراعها بعد أن دفع لسائق السيارة أجره: «تعالي وقابلي جوان».

كانت جوان جالسة تنتظرهما، وما إن رأتهما حتى تركت مقعدها. كانت ليبرتي مقتنعة تقريباً بأن ذكرياتها عن المرأة التي سرقت قلب أبيها مغشاة بنظرة الطفولة. ولكن لا، فما زالت جوان قصيرة بدينة، وعادية، وخداها الورديان من دون زينة. وكان أبوها ينظر إلى حبه القديم وكأن جوليا روبرتس، وكاثرين زيتا. جونز وغوينيث بالترو قد اجتمعن فيها. وشعرت ليبرتي بغصة في حلقها.

قالت جوان بهدوء: «مرحباً ليبرتي».

لم تستطع ابتسامة جوان العريضة أن تخفي القلق البادي في عينيها

البنيتين الرقيقتين. لم تنتبه ليبرتي لليد الممدودة لتصافحها، فأخذتها في أحضانها وهي تقول لها بحرارة: «ما أشدّ سروري بالاجتماع بك مرة أخرى، يا جوان، خصوصاً بعد أن عرفت ما تعنيه لأبي».

فقالت جوان بحذر: «ألا. . . أليس لديك مانع؟».

فابتسمت ليبرتي وقالت وهي تنظر إلى أبيها أيضاً: «مانع؟ أنت ما يحتاجه أبي تماماً. لقد حان الوقت ليحظى بشيء من السعادة».

كانت جوان تمسك بيدي ليبرتي فضغطت عليهما بشدة والدموع في عينيها: «شكراً يا ليبرتي. لا أستطيع أن أقول ماذا يعني كلامك هذا بالنسبة إليّ».

وسارت الأمسيّة على هذا النحو. وبعد الطبق الأول الذي كان رائعاً، وجدت ليبرتي نفسها مستمتعة ومرتاحة تماماً. كانت قد نسيت، ربما لصغر سنها حين عرفت جوان لأول مرة، أن جوان تتمتع بروح النكتة وبسرعة بديهة تصل إلى حدّ المكر أحياناً. وخلال دقائق، أدركت سبب وقوع أبيها في غرام هذه المرأة، فهي نقيض أمها تماماً.

كانت ليبرتي تنهي آخر لقمة من طبقها عندما وقع نظرها على مائدة قريبة منهم. لم تعرف ما الذي لفت نظرها. . . ربما لأن الأشخاص الأربعة الذين كانوا على وشك الجلوس قد سبّبوا جلبة خفيفة، وأن أحدهم عارضة أزياء معروفة، لكن عندما قابلت عيناها المتسائلتان الصوان الرمادي، شعرت بصدمة تشلّ كيانها.

من بين كل الناس رأت هذه الليلة كارتر بليك! وعندما ابتسم لها استطاعت أن تبادله الابتسام بابتسامة حقيقية طبيعية نوعاً ما. سرّها أن موائد عدة تفصل بينهما وبالتالي لا يمكن أن يسمع خفقات قلبها. دام تبادل النظر لحظة أو نحوها قبل أن يحوّل عينيه، ملتفتاً إلى المرأة الأنيقة بجانبه ليقول شيئاً بعد أن جلسوا جميعاً.

أخذت ليبرتي جرعة من شرابها قبل أن تنتبه إلى أن أباها بطريقته الاجتماعية الأنيسة يتكلم بصوت خافت مع رجل يجلس إلى مائدة قريبة منه. وكان الرجل ينظر هو أيضاً عبر القاعة، فيما سأل أبوها بلطف: «ألا يفترض بنا جميعاً أن نعلم من هم؟».

طرح سؤاله هذا عندما توجه رئيس الندل إلى مائدة كارتر بابتسامة تزلف واضحة. فأجابه الرجل الآخر بابتسامة عريضة هازلة: «المرأة ذات الثوب الأحمر هي كارمن لابوتياز، عارضة الأزياء الشهيرة... أو المفروض أن تكون شهيرة. والمرأة الأخرى ممثلة أيضاً».

فقال دايفد فوكس ضاحكاً: «ليس بالنسبة إليّ، والرجلان؟»

– الوحش الوسيم مع كارمن هو كارتر بليك، إنه صاحب هذا النادي ويملك نصف لندن. أما الرجل الآخر فلا أعرفه.

– صاحب هذا النادي؟ هذا يفسر تراكض الموظفين لخدمته؟

وكانت جوان هي المتحدثة فأومأ الرجل الآخر: «تقول الشائعات إن له إصبعاً في كل مشروع تقريباً. وهذا أمر جيد بالنسبة إلى رجل انطلق في الحياة من الصفر منذ نحو عشر سنوات».

وابتسم وهو يعود بانتباهه إلى المرأة السمراء الجميلة التي ترافقه، بينما ابتسم دايفيد لجوان وابنته، وهو يشعر بالرضى عن نفسه: «حسناً، يبدو وكأننا اخترنا الليلة المناسبة لنحظى بشيء من الإثارة».

لم تشأ ليبرتي أن تخمد حماسته لكنها وجدت أن عليها أن تقول شيئاً: «لست واثقة تماماً... الرجل الذي صدمني... أمنحك فرص للتخمين واكتشاف من يكون، لكن اسمه يبدأ بحرف (ب) وينتهي بحرف (ك)».

وابتسمت لتلطّف الجوّ فحدّق أبوها إليها: «غير ممكن... أنت لا تعنين...».

فابتسمت بأسف: «وكان يقود أروع سيارات المرسيدس، أو كانت

كذلك حتى تملّك سيارتي الصغيرة الطيش فقفزت أمامها».

– ليبرتي.

ويبدو أن أباها حدّث جوان عن الحادث إذ وضعت يدها على ذراع ليبرتي وسألت: «هل تصرف معك بشكل لائق بعد الحادث؟ لن يسبب لك حرجاً، أليس كذلك؟ يمكننا أن نغادر المكان إذا كنت تشعرين بعدم الارتياح».

– لا، أبداً. بل كان طيباً للغاية.

باستثناء أنه جعلها تشعر بأن طولها لا يتجاوز الإنشين بجانبه، وهذا ما كانت تستحقه تماماً، كما اعترفت لنفسها بصمت.

وتابعت تقول بمرح: «كما أننا لا يمكننا أن نغادر المكان قبل أن نتناول الحلوى».

فقالت جوان لاوية ملامحها: «وأنا أحب الحلوى كما يبدو من مظهري. ليتني نحيفة مثلك، لكنني بهذا الشكل منذ طفولتي...».

قاطعها دايفيد قبل أن ترد ليبرتي: «ما من عيب في جسمك. إياك أن تحاولي تغيير شيء في نفسك، هل سمعتني؟ أنا لا أطيق المرأة التي تعيش النهار بطوله على ورق الخس. عيادتي مليئة بهن وهن يشكين من توتر الأعصاب والإجهاد بينما كل ما يحتجن إليه هو حلوى دسمة أو قطع من الشوكولا».

– أوه، يا دايفيد.

وراحت جوان تضحك بصوت خافت. لكن ليبرتي حسدت المرأة من كل قلبها حتى وهي تشاركها الضحك. أن يحب الرجل امرأته لذاتها... كم من النساء وجدن أنفسهن محظوظات بذلك؟ لقد جعلتها مهنتها تحتك بنساء لا يحصى عددهن وقد تخلى عنهن أزواجهن من أجل عارضة أزياء أصغر سناً. كما أن العكس يحدث أيضاً، وأمها برهان على ذلك. وقد

اقتنعت هي منذ سنوات أن الحب الحقيقي ليس إلا وهماً... إنه دافئ ورائع ومريح للنفس في الروايات العاطفية وحكايات الجن فقط، لكنه ليس جزءاً من العالم الحقيقي. إنما الآن، وهي تنظر إلى أبيها وجوان، اعترفت مرغمة بأن لكل قاعدة استثناء.

جاهدت ليبرتي لئلا يشرد بصرها إلى المائدة الأخرى أثناء تناول الطعام. لكنها وجدت نفسها تسترق النظر من حين الى آخر. وعندما وقفت لتذهب إلى استراحة السيدات قبل تقديم القهوة، اكتشفت أن عينيها تنجذبان نحوه وكأنه مغنطيس.

كانت تدرك أن كعب حذائها العالي قد يجعلها تقع إذا لم تركز اهتمامها على خطواتها جيداً، فسارت بخطى رزينة لائقة متحكمة بكل عضلة في جسدها. لن يجب منظر هذه البليدة، الضعيفة العقل، مكوّمة عند قدميه، لتثبت أنها ما زالت تلك العديمة التفكير التي عرفها، كما خطر لها بمرارة.

وتذكرت ما شعرت به من رهبة لدى أول زيارة لها إلى هذا المكان، وقد زاد من رهبتها الآن علمها أن كارتر بليك يملك هذا كله. لا بد أنه ثري للغاية. هل كارمن لابوتياز عشيقته؟

توقفت عند هذه الفكرة، غاضبة من نفسها لتطفلها هذا وحشريتها، رغم أنها أجابت نفسها بأن هذا ممكن طبعاً. ولعلها واحدة من كثيرات. تملكتها قشعريرة خفيفة ما جعلها ترفض الإستمرار في هذه الأفكار. ليس أي شأن بكارتر بليك، وخصوصاً حياته الخاصة!

أصلحت تسريحة شعرها وحمرة شفتيها قبل أن تغادر الاستراحة، مؤجلة مرورها بمائدته رغم تعنيف نفسها على جبنها هذا. كرهت أن تعترف بأنها كانت تشعر بلهفة مؤلمة إلى ذلك الرجل الطويل الأسمر الجالس على بعد خطوات منها. حتى وهي تتحدث إلى أبيها وجوان، كانت أذناها تصغيان إلى الضحكات التي ترتفع من مائدته بين لحظة وأخرى. وأكثر ما أغاظها أنه، من دون شك، صرفها من ذهنه على الفور بعد تلك الابتسامة

المهذبة. وهي واثقة من أنه لم يعاود النظر نحوها مرة أخرى.

أنهت إصلاح زينتها وأقفلت حقيبتها ونصبت قامتها. لقد أخبرت أباها بأن عليها أن تكون في مكتبها في ساعة مبكرة من الصباح التالي... لذا، ستغادر بعد ارتشاف القهوة. والسبب الرئيسي في قرارها هو أنها ترغب في ترك الحبيبين لبعضهما البعض ليرقصا ويستمتعا. وبما أن كارتر في النادي، فلا يمكن لشيء أن يقنعها بالبقاء.

فتحت باب الاستراحة وخرجت إلى الردهة الفخمة وإذا بها تقفز بجفلة عندما قبضت يد على معصمها.

قال كارتر من جانبها: «آسف. هل أفزعتك؟».

قالت بجفاء وهي تجذب ذراعها، رافضة أن تسمح لطوله وعرضه بأن يرهباها: «طبعاً أفزعتني».

كما رفضت أيضاً التفكير في أنه يبدو رائعاً في بذلة المساء الرائعة التفصيل وجذاباً ضعف ما كان عليه بعد ظهر اليوم: «لم أتعوّد أن يزحف الناس خلفي».

وقطبت جبينها ليعلم أنها جادة في كلامها، فأجاب هازلاً برقة لمست منها وتراً حساساً: «لا أظنني زحفت قط في حياتي».

تأملته بعينين غير ودودتين: «حقاً؟ اسمع، إذا ظننت أني أحمل أوراق السيارة معي، فانسَ ذلك. لا أحمل في حقيبتي سوى فرشاة شعر وأحمر الشفاه والقليل غير ذلك».

لم ينظر إلى حقيبتها بل بقي يتأملها بإمعان أثار أعصابها ثم قال: «كان الحادث غلطتك وليس غلطتي وقد سبق أن اتفقنا على ذلك. فلِمَ هذا العداء يا آنسة فوكس؟».

تصلبت ليبرتي وردّت: «لا أدري ما الذي تتحدث عنه. أنا لست عدائية».

سألها متهكماً: «أحقاً؟».

ردّت بحدة: «لا».

وحلقت فيه وتفاجأت وازداد غيظها عندما ضحك بنعومة ولوى فمه الحازم، كاشفاً عن أسنان بيضاء: «أنا ألوم الشعر».

- ماذا؟

- ذوات الشعر الأحمر معروفات بحدة الطباع دوماً.

دوماً؟ دوماً؟ إنه يقارنها بنساء يعرفهن، وربما عاشرهن؟ انتصبت بقامتها الطويلة لكنها لسوء الحظ لم تترك التأثير المسيطر المطلوب. قالت ببرودة: «ما الذي تريده، يا سيد بليك؟».

ارتفع حاجباه قليلاً: «وما الذي تقدمينه، يا آنسة فوكس؟».

يا له من رجل مزعج! وقالت بتزمت: «أنت تعرف ما أعنيه».

قال وهو يطيل النظر إلى بوجهها الغاضب بافتتان خفي: «لست واثقاً من أنني أعرف».

كان على صواب بالنسبة إلى الشعر... فهو رائع، وكث ولامع كالحرير. وهو يحيط وجهها بطريقة أظهرت بشرتها الناعمة، ولون عينيها الداكن. كيف أمكنه أن يفكر لحظة في أنها عادية؟

- من الواضح أنك كنت تنتظرني هنا. لماذا؟

فسألها متهكماً: «ألا تظنين أن من الممكن أنني كنت متوجهاً إلى استراحة الرجال فلمحتك؟».

وأشار إلى باب في آخر الردهة.

حدّقت إليه وقد شعرت فجأة بأنها معتوهة تماماً، وهذا أمر اعتادته كلما كانت قرب هذا الرجل. ما الذي يجعله ينتظرها وهو برفقة كارمن لابوتياز؟ لا بد أنها مجنونة إذ ظنت ذلك لثانية واحدة وأكثر جنوناً حين قالته. ولم تعد تعرف ما عليها أن تقول.

قرر كارتر أن يخلّصها من تعاستها فقال: «في الواقع، كلامك صحيح فقد كنت أنتظرك».

وعندما رأى عينيها تضيقان بطريقة تنذر بالسوء، سارع يقول: «لقد تفحّصت سيارتي، فوجدت الضرر تافهاً. إذا سمحت لي بأن أدعوك على العشاء في أي وقت، فسننسى أمر شركات التأمين. أعرف رجلاً بإمكانه أن يصلح سيارتك بكلفة زهيدة».

- لا أفهم.

ثم تلاشى تقطيبها المتسائل. عشاء! إنه يقترح عليها تناول العشاء معه. لعل هذا يعني أكثر من تناول العشاء إذا كان يشبه معظم أبناء جنسه.

فقالت ببرودة أشبه ببرودة الثلج وقد توهج وجهها مرة أخرى: «أظن أن من الأفضل أن تأخذ الأمور مجراها الطبيعي، يا سيد بليك».

فسألها بشيء من الاهتمام: «لماذا؟».

حسناً، ستجيبه ما دام يسأل: «لأنني لن أتناول العشاء معك حتى لو كنت آخر رجل في العالم. لعلي أبدو رجعية، لكنني لست من ذلك النوع من النساء. وأقترح عليك أن تعود إلى رفاقك يا سيد بليك».

مرت على ملامحه ومضة لم تفهمها تماماً قبل أن تخلو ملامحه من أيّ تعبير: «قلت (عشاء) وأعني بذلك (عشاء). لم أشترِ بعد أي امرأة يا آنسة فوكس فأنا لم أضطر إلى ذلك، مهما بدا ذلك لك غريباً».

إنها تصدق كلامه. وأدركت على الفور أنها اقترفت غلطة كبرى فتأوهت في داخلها: «آسفة، ليس لدي الحق في الافتراض... كل ما في الأمر أن معظم الرجال...».

ورأت النظرة الحادة في عينيه فشعرت برغبة في العودة إلى استراحة السيدات... ولم تعرف كيف تتابع كلامها، فأكمل بدلاً منها: «... يغتنمون أي فرصة تسنح ليتعرفوا إلى امرأة جميلة مثلك؟ أعترف

بأنني مذنب بالنسبة إلى هذا الإتهام ولكن ليس في البقية. فأنا لست من (معظم الرجال) كما ستكتشفين».

وابتسم ابتسامة خفيفة. فخطر لها أن هذا لن يحدث إلا فوق جثتها، إذ ما من شيء يجمعها بهذا الرجل، فهو خطر. في الواقع، لقد جعل جيرارد المسكين الصغير يبدو كتلميذ مدرسة في فن الإغواء.

فقالت بسرعة مع ابتسامة مرغمة: «عليّ أن أذهب لأن أبي بانتظاري. لكنني سأتصل بك لترتيب الأمور».

فسألها على الفور وقد ضاقت عيناه: «متى؟».

– ماذا؟

يا لجرأة هذا الرجل الذي يحاول أن يحرجها بهذا الشكل.

– متى ستتصلين؟

عليها أن تعالج هذا الأمر وتعيده إلى حجمه الطبيعي. استنجدت بكل ما تدربت عليه لتبقى موضوعية هادئة، أو لتبدو بهذا الشكل على الأقل، فقالت باتزان: «خلال الأربع وعشرين ساعة القادمة أو نحو ذلك. والآن، كما سبق وقلت، أبي في انتظاري فأرجو المعذرة».

– لا داعي للعجلة فهو ليس وحده. هل هي أمك من معه؟

ولأول مرة منذ المراهقة، يجد كارتر نفسه يحاول أن يجري حديثاً مع امرأة يظهر بوضوح أنها تريد أن تهرب منه فأذهله هذا. توقّع منها نسبياً أن تطلب منه أن يهتم بشؤونه الخاصة، أو أن يذهب إلى الجحيم، لكنها لم تفعل أياً من الأمرين. اكتفت بأن حدقت إليه بعينيها البنيتين الكبيرتين، عينان أشبه، برقتهما، بعيني غزالة مضطرة للدفاع عن نفسها.

وأخيراً، أجابت: «لا. ليست أمي».

التوت شفتاه بأدب ولكن بحزم. وقال بهدوء: «ما ظننت ذلك، فأنا لم أر أي شبه بينكما».

هزت كتفيها: «ما من شبه بيني وبين أمي، فهي صغيرة الجسم شقراء الشعر وزرقاء العينين».

راح كارتر يحملق فيها الآن. لقد أحس بشيء ما وهي تتحدث عن أمها... ذبذبات واضحة محددة لا تعكس أيّ شيء حسن... ربما من الأفضل ألا تتصل به فآخر ما يحتاجه حالياً هو أن يتورط مع امرأة مثقلة بالمشاكل... يريد لعلاقته بالنساء أن تشبه شرائه سيارة. علاقة جيدة بالمرأة ما داما معاً، فإذا افترقا حصل ذلك بسهولة ومن دون تعقيد. وهكذا دُهش وهو يسمع صوته يقول: «سأرافقك إلى مائدتك».

لكن آخر ما تريده ليبرتي هو أن تعرفه إلى أبيها وجوان فقالت: «لا حاجة لذلك. ربما سيأخذ رفاقك فكرة خاطئة عندما يروننا معاً».

فقال بعدم اكتراث: «كارمن؟ لا. أنا وكارمن متفاهمان تماماً».

رأت هذا مضحكاً لكنها لم تشك فيه لحظة!

لم تكن ليبرتي تدرك أن ملامحها تكشف أفكارها حتى انحنى نحوها قائلاً: «أنا وكارمن مجرد صديقين حميمين، وإلا لما دعوتك على العشاء. لم أتظاهر قط بأنني رجل مخلص، لكن امرأة في وقت واحد تكفيني».

كان يتكلم بصوت رقيق، لكن النبرة الفولاذية أنبأتها بأن ظنها ذاك لم يعجبه. وعندما أنهى كلامه، رفع حاجبيه ساخراً.

تملكها الغضب لأنه برهن أنها مخطئة. لقد دخل وتلك المرأة متعلقة به كالنبات المتعرش السام، وهو الآن يلومها لأنها صدّقت ما رأته عيناها.

أمالت رأسها إلى الخلف ونظرت في عينيه مباشرة وقالت: «علاقتك بالآنسة لابوتياز أو أي امرأة أخرى لا تهمني. تصبح على خير يا سيد بليك».

وتركته قبل أن يجيب وسارت بسرعة، بقدر ما سمح لها كعبا حذائها، إلى حيث مائدتها.

توقّعت أن يتبعها أو أن يحاول الإمساك بها، لكنها وصلت إلى المائدة من دون حادثة، باستثناء أنها أوشكت على الاصطدام بالمائدة بعد أن علق كعب حذائها بحاشية ثوبها في آخر لحظة.

ابتسم أبوها وجوان لها وفي عيونهما تلك النظرة المذنبة لشخصين كانا يتهامسان بأشياء تافهة حلوة، فبادلتهما الابتسام بوجه مشرق، متسائلة متى يمكنها أن تعتذر وتنصرف، ولماذا تركت كارتر يؤثر فيها بهذا الشكل؟ لم يؤثر فيها رجل آخر قط إلى هذا الحد، علماً أنها لم تعرف رجالاً كثر.

كانت القهوة تحرق حلقها لكنها لم تشعر بذلك، لقد خرجت مع بعض الشبان قبل جيرارد، لكنها اعتادت أن تترك الأمور عفوية، حتى جيرارد لم يحطم قلبها. لعله ألحق به بعض الأذى وجرح كبرياءها لكنها لا تستطيع أن تقول إن خيانته دمّرتها.

اتسعت عيناها عندما خطر في بالها أنها نسيته تماماً في أقل من بضعة ساعات. هل هذا فظيع؟ فكرت في ذلك للحظات ثم قررت أنّ الأمر لا يهمها فهي كانت تكره أن تكون رقماً آخر مدوّناً في مفكرته.

عندما قررت الرحيل، أصرّ أبوها على أن يرافقها إلى مدخل النادي ويقف معها ريثما تجد سيارة أجرى. وفي الخارج احتضنها وهو يقول لها بصوت أجش: «شكراً لأنك كنت لطيفة مع جوان. أتظنين أن طلب الزواج منها الآن تسرّع؟».

مدت ليبرتي يدها تربت على خده قائلة برقة فائقة: «بعد انتظار دام أكثر من عشرين عاماً تدعو ذلك تسرعاً؟ افعل ذلك يا أبي إذا كنت واثقاً».

– لم أكن في حياتي واثقاً من شيء كحالي أنا الآن.

– اطلب منها ذلك إذن، فالحياة أقصر من أن تضيّعها بالتردد.

فقال يستحثها: «ستحضرين عقد الزواج إذن. سيكون مدنياً، لكنني أريدك أن تحضريه».

– حاول أن الآ تدعوني إلى عرسك! والآن عد إليها وسأتصل بك في الصباح. وشكراً على هذه الأمسية الجميلة.

كانت سيارة الأجرة سوداء قد توقفت أمامهما فصعدت إليها فيما وقف يلوّح لها بيده كما اعتاد أن يفعل في الماضي. لكن هذه المرة مختلفة، وقد أدرك كلاهما ذلك. وقفت السيارة عند الإشارة الضوئية، وعندما التفت ليبرتي ونظرت من النافذة الخلفية، رأت أباها يعود بنشاط إلى النادي الليلي وكأنه في العشرين من عمره.

ابتسمت ليبرتي، مسرورة من أجله ومن أجل جوان أيضاً، لكن فرحهما ببعضهما البعض جعلها، لسبب ما، تتململ. أم أن سبب تململها هو أمر آخر؟ أمر آخر جعلها تشعر بأنها على خلاف مع العالم كله الليلة؟ قطبت جبينها، كارهة أن تعترف بأن لكارتر بليك مثل هذا التأثير فيها، وهي التي لم تعرفه إلا منذ ساعات.

عندما أنزلتها سيارة الأجرة أمام بيتها، كانت قد قررت أن الأمر لا يتعلق به بل بالنهار كله. فقد زارت أمها، ثم تعرّضت لحادث الاصطدام ذلك، والعمل الفظيع بعد الظهر، ثم مواجهة كارتر مرة أخرى عند المساء فيما مشاعرها لا تزال مرهفة... ستنام باكراً هذه الليلة فتعود الأمور إلى أبعادها الصحيحة مرة أخرى.

٣ - امرأة المفاجآت

اتصلت ليبرتي بكارتر بليك في التاسعة من مساء اليوم التالي، معتقدة أنها تأخرت بما يكفي لتظهر عدم فروغ صبرها وتلهفها إلى الاتصال به، رغم أن الرجل لم يبارح ذهنها طوال النهار. لم تستطع أن تتذكر مناسبة راجعت فيها عملها مرات عدة، فهي تحسن التركيز عادة. لكن هذا النهار كان كابوساً من الأخطاء والهفوات، وكل هذا بسبب رمادي العينين الذي لم يرضَ بالبقاء في الصندوق الذي صممته له في ذهنها. وكرهت ذلك، كرهته حقاً.

اتصلت برقم البيت بدلاً من الخلوي، آملة أن يرد عليها المجيب الآلي بحيث تترك له رسالة مع كل التفاصيل من دون أن تتكلم معه. هذا على الأقل ما حاولت اقناع نفسها بأنها تتمناه، رافضة أن تعترف بتلك الحماسة في أعماقها كي تسمع صوته العميق الساحر مرة أخرى.

لكن إحباطاً مفاجئاً تملكها عندما رفعت السماعة وجاءها صوت أنثوي يقول: «جنيفر بليك. أي خدمة؟».

هل هي أمه؟ لكن الصوت بدا فتياً فهل هي زوجته؟ لم يبدُ لها متزوجاً، لكنها أخذت تحدث نفسها بألاّ تكون سخيفة. نساء العالم ينخدعن برجال لا يبدون أو يتصرفون وكأنهم متزوجون! كما يثبت لها ذلك عملها يومياً.

تنحنحت ليبرتي بحذر: «هنا ليبرتي فوكس، أنا أتصل لكي...»

- نعم. أخبرني كارتر أنك قد تتصلين. انتظري لحظة لأناديه.
- لا، هذا ليس ضرورياً، إذا أنت...

لكنها كانت تتكلم عبثاً، إذا سمعت صوتاً ينادي كارتر فأخذ قلبها يخفق بشدة.

ساد الصمت ثوانٍ عدة سمعت بعدها صوتاً يقول: «ليبرتي؟ كنت أنتظر اتصالك».

وأرسل الصوت العميق قشعريرة في كيانها كله، فقطبت جبينها. ماذا يعني ذلك؟ هل هذه مجرد طريقة مهذبة لبدء الحديث، أم أنه يعني أنه كان حقاً ينتظر أن تتصل به؟ الأفضل لها أن تفترض الخيار الأول. وتنفست بعمق: «لقد حصلت على الأوراق التي تريدها، يا سيّد بليك».

- كارتر.

جاء صوته ساراً ولكن حازماً.

- أرجو المعذرة؟

وتمنت ألاّ يبدو صوتها مضطرباً.

- لقد أحدثت بعض الخدوش في طلاء سيارتي الذي لا عيب فيه، ألا تنزلين من عليائك قليلاً وتنادينني باسمي؟

فتحت فمها لتجيب لكنه عاد يقول: «يمكنك أن تضعي السماعة من عندك في الردهة يا جين».

لم تسمع أيّ جواب لكن السماعة وُضعت مكانها بصوت مسموع، بينما قال كارتر ساخراً: «إنها أختي، أختي العفريتة للغاية».

- هذا حسن.

لسبب ما، لم تعرف لماذا لم يخطر لها أنّ لديه أشقاء. بدا لها وكأنه يعيش وحده.

وفجأة، أصبح الصوت الساخر عملياً واقعياً فدهشت: «والآن، ربما بإمكانك أن تبدئي بإعطائي رقم هاتفك وعنوانك».

- نعم، طبعاً.

وأعطته المعلومات، لكن عندما وصلت إلى تفاصيل التأمين أسكتها قائلاً: «لا أريد رقم التسجيل أو اسم شركة التأمين، يا ليبرتي. خصوصاً إذا كان ذلك بديلاً لموعد العشاء».

كاد قلبها يقفز من صدرها لشدّة ما خفق: «أنا.... أنا لا أظن...»

بدا صوتها وكأنها تختنق، فسعلت وحاولت أن تتمالك نفسها. ثم قالت بحزم: «أظننا اتفقنا على عدم التفكير في هذا الأمر».

فأجاب بلطف: «لا، أنت من فسر دوافعي لهذه الدعوة بشكل غير لائق أبداً، فصححت لك معلوماتك بطريقة تصفّي الجو بيننا. وهكذا، لا أرى سبباً يمنعنا من أن نستمتع بأمسية نمضيها معاً».

بدا الأمر معقولاً، وقطبت حاجبيها. لا بد أن هناك خدعة ما... فقالت: «أنا مشغولة حالياً مع الأسف، ولهذا فأنا لا أخرج في مواعيد».

- ربما ينطبق هذا على الرجال العاديين، لكنني مختلف.

وبدا قوله هذا بالغ الغطرسة لكنه أردف: «أنا مختلف لأنك مدينة لي، يا ليبرتي. فأنت من تسبب بالاصطدام، هل نسيت؟ وربما تضررت بشكل بالغ».

- أنت لم تتضرر.

أجاب: «قلت إنني ربما تضررت. تصوّري الصدمة التي أصابتني عندما قفزت أمامي سيارة فجأة بذلك الشكل. ربما كان هذا ليصيب رجلاً أضعف مني بنوبة قلبية».

ابتسمت رغماً عنها، وشكرت الله لأنه لا يرى تأثير ظرفه. لا شك أن النساء يتهافتن عليه بمجرد أن يرفع حاجبيه مرة واحدة! أخفت نبرة الهزل في صوتها وقالت: «أنت لم تصب بنوبة قلبية، والشيء الوحيد الذي تضرر هو سيارتي، هذا إلى خدوش قليلة لحقت بسيارتك ووعدت بأن أدفع كلفة تصليحها».

- لا أريدك أن تدفعي لي المال. أريدك أن تتناولي العشاء معي.

وضعت يدها على جبينها. لو روت هذا الحديث لأي شخص آخر لاعتبرها مجنونة لأنها تكلمه بحدة وجفاء. كلفة إصلاح طلاء سيارة مرسيدس ليست زهيدة، وهي لم تخدع نفسها في هذا الموضوع، ولكن....

ابتلعت ريقها بصعوبة. يبدو أنه لن يقبل الرفض، وهذا هو أساس المسألة. يمكنها أن توافق على أن تراه مرة واحدة، وينتهي الأمر عند هذا الحد: «لا بأس، سأتناول العشاء معك».

وبان في صوتها نبرة فظة لم يعلّق عليها بل قال برضا بالغ: «هذا حسن وبما أن غداً هو السبت، فسيكون لديك النهار بطوله للاستعداد».

- إنتظر لحظة، أنا لم أقل إنني حرة غداً.

يا لجرأته! وسألها بلطف: «هل أنت حرة؟».

- نعم، صدفة، ولكن كان ممكناً ألاّ أكون حرّة.

وأدركت أنها بدت شرسة من دون ضرورة، إذ قال بصوت صبور إلى حد مهين وكأنه يتحدث إلى طفلة: «قلت إنك لا تواعدين أحداً حالياً، ولهذا ظننت أن أهم ما سيشغلك هو غسل شعرك».

- كما قلت أيضاً إنني مشغولة جداً. ربما لدي برنامج لا يمكنني تغييره.

- لكنك تبقين بحاجة إلى أن تأكلي أحياناً.

وأخيراً، أذعنت وقد تملكها شعور بأن كارتر بليك يربح دوماً النقاش. ولذا، من الأفضل أن تنتهي من هذا الأمر وترتاح.

وافترض أنه انتصر لأنه تابع يقول: «سأحضر لآخذك الساعة السابعة، اتفقنا؟ ولا تبالغي في الأناقة، لأن المطعم الذي سآخذك إليه عادي لكن طعامه لذيذ للغاية».

- لا بأس.

افترضت أنهما سيتعشيان في «فينيكس» لكن يبدو أن في ذهنه مخططاً ما. وترددت لحظة قبل أن تقول: «شكراً».

حمل شكرها هذا شيئاً من الحقد، فأجاب بنبرة هازلة: «بكل سرور. تصبحين على خير يا ليبرتي».

- تصبح على خير.

وضعت السماعة ورأسها يدور، ثم أخذت تحدّق إلى الهاتف دقيقة كاملة قبل أن تقنع نفسها بالإنتقال من مكانها.

***

عندما أوت إلى فراشها، كان ذهنها لا يزال مشوشاً. استيقظت في الصباح التالي بعد أن نامت نوماً عميقاً هادىء وبقيت مستلقية دقائق عدة في سريرها الدافىء المزدوج. نظرت عبر الغرفة، إلى اللوحة التي اشترتها عندما انتقلت إلى البيت، وكانت قد رأتها في معرض فنون صغير عند زاوية الشارع قرب مكتبها، فوقعت في غرامها على الفور. وأدركت أن عليها أن تشتريها مهما كان ثمنها.

رُسمت الحديقة المكسوة بالثلج بشكل رائع، فقد حوّلت الشمس الغاربة لون الثلج إلى لون وردي في بعض النواحي. ولكن مشهد الشخصين اللذين برزا في مقدمة الصورة هو الذي يبعث الحنين دوماً في صدرها. كانت الأم راكعة على الثلج وذراعاها مفتوحتان لاستقبال طفلتها الضاحكة التي كانت تركض وهي تضحك نحوها، فيما رجل الثلج الذي صنعته الطفلة يراقب المنظر بابتسامة عريضة على وجهه الأبيض.

لم تعرف لماذا أحبت هذه الصورة إلى هذا الحد رغم أنها تثير فيها دوماً الرغبة في البكاء. لكن لعل الحب المتألق في وجه المرأة هو الذي يعتصر قلبها كلما نظرت إلى الصورة. وعندما أرتها لأبيها في أول ليلة طهت فيها له

عشاءً في بيتها الجديد قال: «أتمنعين بذلك الأشباح من الظهور يا حبيبتي؟» وقد أزعجها قوله هذا أياماً عديدة.

لن تنجب أولاداً أبداً. وبقيت تحدق إلى الصورة حتى اغرورقت عيناها بالدموع. رغم أنها تحب أن تصبح أماً يوماً ما، إلاّ أنها لن تسلّم نفسها أو أولادها لأي رجل. الزواج، العهود، الإخلاص... كل ذلك لا وجود له في العالم الحقيقي. يجب أن يكون لكل الأولاد والدان يحبان بعضهما البعض ويكرّسان حياتهما لبعضهما البعض. تعرف فتاتين قررتا أن تنجبا وتصبحا أميّن من دون أبوين، لكن ذلك لا يناسبها. فقد رباها أبوها وحده وهي تعلم أنه أول من سيعارض أيّ فكرة مماثلة.

عليها أن تؤسس لنفسها حياة جديدة، وها هي تقوم بذلك. تقلبت في سريرها وقد تضايقت فجأة من تحوّل أفكارها. لديها بيت وعمل جيد، وهي تنوي التقدم في مهنتها قدر إمكانها. بعد قضائها سنوات بصفة شريكة صغيرة، ابتدأت أخيراً تصعد درجات السلم، ولكن هذا لم يشعرها بالبهجة المعتادة.

- قهوة.

قالت هذا بصوت مرتفع وهي ترمي الغطاء عنها وتقفز من السرير. قهوة وخبز محمص وقراءة مطولّة للصحيفة، إنها بداية كسول للنهار. وهذا ما عليها أن تفعله في عطلتها الأسبوعية بعد التدافع الجنوني من الإثنين إلى الجمعة.

كانت تتناول كوب قهوتها الثاني، وقد تكوّرت على الأريكة في غرفة الجلوس، عندما رن الهاتف بجانبها. رفعت السماعة بشكل آلي وهي تتابع القراءة.

- ليبرتي؟ أنا كارتر.

الصوت العميق جعلها تقفز مجفلة. لكن، ولحسن حظها كانت القهوة

قد بردت قليلاً حين انسكبت في حجرها.

إنه يريد أن يلغي الموعد وهي لا تلومه... كما أخذت تفكر محمومة وهي تمسح القهوة عن بيجامتها الحريرية بالمنديل الذي في جيبها. مضت لحظة أو اثنتان قبل أن تستطيع الرد لاهثة: «نعم؟»

ساد صمت قصير قال بعده: «هل أنت وحدك؟»

كان سؤاله مفاجئاً فيما ازدادت برودة صوته قليلاً، فنظرت إلى السماعة بدهشة: «ماذا؟»

فكرر بفروغ صبر: «قلت هل أنت وحدك؟»

– طبعاً أنا وحدي. الساعة التاسعة صباحاً.

– صوتك... مختلف.

وهكذا سيكون صوته لو أنه سكب كوب القهوة في حجره، إنما لن تخبره عن فنجان القهوة، ثم أدركت ما يتضمنه كلامه فقالت بحدة: «ما معنى أن تسألني إن كنت وحدي، على أيّ حال؟ ومن ذا الذي تظنه معي؟»

فقال بلطف: «ليس لدي فكرة يا ليبرتي. أنت امرأة عزباء تستطيع استضافة أي شخص في بيتها».

– اسمع يا كارتر، لنوضح هذا الأمر. أنا لست من ذلك النوع من النساء. وأنا أنام وحدي، هل فهمت؟ دائماً.

– دائماً؟

– نعم، دائماً.

وكادت ترى عدم التصديق في وجهه.

فقال بفتور: «هذا حسن. أنا مسرور بمعرفة ذلك».

لم يبدُ في صوته السرور. وفجأة، شعرت بتحسن. أتراها وضعت عقبة أمام تنفيذ خطته هذه الليلة؟ هل خطر في باله أن مهارته في الإغواء لن تتمكن من تحطيم الثلج الذي يغلف مشاعرها؟ وسألته بصراحة: «لماذا

تتصل؟ هل تذكرت أن لديك موعداً، في مكان ما، هذا المساء؟ عمل مستعجل أو ما شابه؟»

فقال دون رقة: «لا تكوني حمقاء».

ثم أضاف بلطف: «ولا تكوني عصبية ومستعدة للدفاع إلى هذا الحد».

– أنا لست كذلك.

تكلّمت بشكل دفاعي ثم عضت شفتها بشدة. يا له من رجل مزعج! إنه دوماً على صواب. وتابع يقول: «أنا أتصل بك لأرى إن كنت حرة عصر اليوم بالإضافة إلى المساء. وقبل أن تجدي عذراً، أعلمك أني حصلت فجأة على تذكرتين لحفلة نهارية في «ويست إند»».

وذكر اسم عرض كانت متلهفة لمشاهدته منذ وقت طويل لكن تذاكره محجوزة منذ أشهر. حدقت ليبرتي إلى الهاتف وكأنه تعطّل. هل يمكنها أن ترفض شيئاً كهذا؟ قالت بحذر: «هذا يبدو جيداً، إذا كنت واثقاً من أنك لا تريد أن تصطحب امرأة أخرى».

فقال متهكماً: «لا تفرحي كثيراً بهذا الشكل، سأمرّ لآخذك في الساعة الواحدة بعد الظهر».

ولم يمنحها فرصة لتودعه قبل أن يضع السماعة.

بدّلت ملابسها ثلاث مرات قبل الساعة الواحدة. وعندما رن جرس الباب، ألقت نظرة أخيرة على صورتها في المرآة فتملكها الرضا عن مظهرها في المعطف «التويد» الفاخر فوق الثوب القصير العاجي اللون ذي الياقة العالية، والذي يناسبها دوماً. كانت ملابسها تصلح للمسرح وللمطعم في ما بعد.

وضعت أقل ما يمكن من الزينة على وجهها، إذ اكتفت ببعض الكحل فوق عينيها ليبرز لونهما، ورفعت شعرها فوق رأسها. كانت تسريحتها تصلح لعطلة آخر الأسبوع لكنها شعرت بأنها رسالة منها، تعيد التأكيد على

أنها لا تعرض نفسها عليه أو تهتم بأن تبدو جميلة أمامه. وغضنت أنفها لصورتها في المرآة. إذا كان بإمكانه أن يتأبط ذراع امرأة مثل كارمن، فلماذا يزعج نفسه بها؟ لعل نواياه شريفة مستقيمة، ولكن في حال. . .

- مرحباً.

وحالما فتحت الباب قدم لها باقة من الأزهار منحنياً أمامها. واشتمّت رائحة عطر بعد الحلاقة الحادة، وهي رائحة تفيض رجولة وتغري إلى حدّ مخيف. كان يرتدي سترة جلدية سوداء فبدا أكثر جاذبية فحاولت جهدها ألاّ تفكر في ذلك.

- مرحباً.

وأخذت منه الأزهار ثم أدركت أنها يجب أن تدعوه إلى الدخول: «اجلس لحظة ريثما أضع هذه في الماء ثم. . .»

وتذكرت أصول اللياقة متأخرة فقالت متصلبة: «شكراً».

بدا عريض الكتفين قوي العضلات، وطويل الساقين. ابتسم لها ابتسامة عريضة. وكانت قد لاحظت من قبل كيف أن الابتسامة تجعل ملامح وجهه القوية والخشنة أكثر رقة.

أجاب وهو ينظر حوله باستحسان: «بكل سرور. هل عشت في هذا البيت مدة طويلة؟»

- لا، في الواقع.

كان سخيفاً منها أن تشعر بأنها لا تريد أن تشاركه تفاصيل حياتها فقد سبق وانتهك حرمة عالمها الآمن الصغير: «تفضل بالجلوس».

وأسرعت بالتوجه إلى المطبخ حيث أخذت أول زهرية رأتها ووضعت فيها الورود، ثم نسّقتها قليلاً وأسرعت بها إلى غرفة الجلوس فوضعتها على المنضدة وسط الغرفة وهي تقول: «إنها جميلة، ولكن ما كان لك أن تزعج نفسك بإحضارها. هل نذهب؟ لا أريد أن نتأخر».

أجفل قليلاً للهفتها هذه لكنه وقف وتقدم إلى الباب وفتحه ثم تنحّى جانباً لكي تمرّ. وعندما خرجت احتك كتفها به، فشعرت بتأثير هذا الاحتكاك القصير يصل إلى أصابع قدميها. تمنت ألاّ يكون قد لاحظ الإجفال البسيط الذي تملكها، لكن عندما وقف على قمة السلم وأخذ ينظر إليها وهي تقفل الباب خلفهما، قال: «استرخي، يا ليبرتي، بالله عليك، فأنت بالغة التوتر. لا أظنك خائفة من أن أجعلك تدفعين لقاء الخدوش التي حدثت لسيارتي بتلك الطريقة القديمة بعمر الدهر».

التهب وجهها حرارة والتفتت تواجهه بعد أن أغلقت الباب وقالت بازدراء بالغ: «طبعاً لا».

فقال: «هذا حسن».

نظر إلى وجهها المتورد خجلاً، وراح يفكر أين أمضت حياتها لكي تحمّر خجلاً لسماعها مثل هذا القول البريء نسبياً؟ فهو يعرف نساء كثيرات لا تحمر وجوههن خجلاً لسماع أفحش النكات وأكثرها صراحة. أين تخبئ نفسها أثناء النهار؟ يمكنه أن يتصورها أمينة مكتبة محتشمة عندما تسرح شعرها بهذه الطريقة. أو لعلها تعمل في حضانة أطفال، أو لعلها تمسح الغبار في مكتبة في مكان ما.

سألها فجأة وهما ينزلان السلالم معاً: «ماذا تعملين؟ أعني ما هي مهنتك؟».

فأجابت بهدوء: «أنا محامية. إنني مختصة حالياً بالإجراءات القضائية المدنية والجرائم».

وقف جامداً على الرصيف. فرفعت بصرها إليه: «ماذا؟ ما الأمر؟»

فقال وهو يمدّ يديه ليرفع المشابك التي تمسك بشعرها: «أنت امرأة مليئة بالمفاجآت يا ليبرتي فوكس، كما ابتدأت أكتشف».

هتفت وهي تشعر بشعرها ينسدل على كتفيها: «لا تفعل».

وحاولت أن تستعيد المشابك منه لكنه وضعها في جيبه ببساطة، وفي عينيه نظرة غريبة. فقالت له بحزم: «أريد أن تعيد المشابك إلي، من فضلك».

- لا أريدك أن تخفي نورك.

جف حلقها فجأة فتنحنحت. شيء ما في نظرته جعلها تحبس أنفاسها، فقررت أن تنسى أمر المشابك.

كانت السيارة تنتظرها عند المنعطف، ففتح كارتر بابها وساعد ليبرتي على الدخول ثم صعد إلى جانبها قبل أن يعطي السائق عنوان المسرح. ثم مد ساقيه الطويلتين أمامه وقد بدا غاية في الارتياح فاستاءت بمرارة من تمالكه لأعصابه فيما تشعر هي بتوتر رهيب.

أمسك بذراعها يتأبطها وكأنهما يعرفان بعضهما البعض منذ أشهر: «والآن، حدثيني قليلاً عن نفسك».

منعها الذهول من أن تسحب ذراعها، لكن عندما هدأت خفقات قلبها كان الأوان قد فات على ذلك فتركت ذراعها حيث هي. وقالت بحذر: «ما من شيء يستحق الذكر سوى العمل الممل».

- لست أدري لما أشك في ذلك.

حسناً، إنها الحقيقة... أيظنها ذات ماض حافل أم أن حياتها كارثة استطاعت أن تتغلب عليها؟

نظرت إليه واستقرت عيناها على فمه الذي بدا حازماً وقاسياً قليلاً. وقالت بحذر: «أؤكد لك أنني لست متعبة نفسياً، أنا في الثلاثين، وأعشق مهنتي وأعشق بيتي...».

- هل سبق لك الزواج؟

نظرت إليه بحيرة وردّت: «الزواج؟ كلا طبعاً».

كم يبدو عمرها، بحق الله؟

- جوابك (كلا طبعاً) لا معنى له. فأنا أعرف نساء كثيرات تزوجن وتطلقن وهن في عمرك. وأختي مثال ذلك.

لم تعرف ليبرتي بما تجيب، لكن احتكاك جسده بجسدها كلما مالت السيارة جعل ما يقوله بعيداً عن اهتمامها.

ابتسم في سرّه بفتور. فقد أحس بتوترها الذي كانت تحاول أن تخفيه فاطمأن إلى أنها تشعر به، على الأقل، كرجل. لقد مضى وقت طويل ظن فيه أنها لم تتأثر به، لكنه لم يعد يظن ذلك الآن. وأدهشته قوة مشاعره نحوها... سنوات مرّت منذ تملّكه مزيج من الشهوة وعدم الثقة... منذ أول حبيبة له، في الواقع.

كان في السابعة عشرة من عمره حينذاك. لكن شيئاً ما في هذه المرأة الحمراء الشعر جعله يتقلب ويتململ طوال الليل.

قال بكسل وهو يقترب منها قليلاً: «إذن، أنت لم تتزوجي. هل سبق أن كنت على وشك ذلك؟»

تمنت لو تنتهي الرحلة في سيارة الأجرة هذه. إذ شعرت وكأنها ابتدأت تذوب: «نعم، وليس من زمن بعيد. في الواقع، كان هذا الزواج ليصبح غلطة كبرى».

- فعلاً ألم يكن الرجل مناسباً؟..

- لم يكن كما ادعى لا سيّما بالنسبة إلى الإخلاص، وهذا أمر هام للغاية بالنسبة إلي.

أومأ، لكنه لم يتابع الموضوع وهذا ما جعلها شاكرة. وبدلاً من ذلك، أخذ يتحدث عن المسرحية التي سيشاهدانها وكيف حصل على التذكرتين من صديق اضطر إلى القيام برحلة عمل مفاجئة.

وشيئاً فشيئاً أخذت ليبرتي تسترخي، حتى أنها تسلّت. وعندما وصلا إلى المسرح، كانت قد بدأت تغيّر رأيها فيه. صحيح أنه أكثر غطرسة من أن

يريحها، وكلما قال كلمة كانت تشتبه في أن غايته مشكوك فيها، لكنها استطاعت أن تواجه هذه الأمور.

عندما ساعدها على النزول من السيارة بتهذيب قديم الطراز وجذاب بشكل غير متوقع، ابتسمت شاكرة ونظرت إليه وهو يدفع الأجرة. كان مسلّياً، ذكياً، ظريفاً، ورغم كرهها للاعتراف بذلك، شعرت بلذة لوجودها مع رجل كامل الرجولة.

كان جيرارد حسن المظهر ولكن بشكل صبياني. ولم يكن لديه ما لكارتر من شخصية متسلطة... فضلاً عن جاذبيته وقوته وسيطرته.

مكانهما في المسرح كان ممتازاً كما كان العرض رائعاً. وفي الاستراحة، عندما وجدت نفسها ملتصقة بكارتر بسبب ضغط الحشود، لم تستطع أن تمنع نفسها من الاحمرار خجلاً. لم يبد عليه أنه لاحظ اضطرابها وهو يثرثر، بلا مبالاة وبهدوء حسدته عليه، بينما راح تنفسها هي يتقطع من وقت إلى آخر.

لم يكن المطعم بعيداً عن المسرح، واقترح كارتر أن يذهبا إليه سيراً على الأقدام في هذه الليلة الجافة من تشرين الأول.

سرّت ليبرتي لهذه الفكرة بعد جلوسها طيلة بعد الظهر.

- جائعة؟

وعندما أمسك بيدها بدا هذا التصرف طبيعياً فيه ثقة بالنفس بحيث لم يستلزم تلك الصاعقة التي ضربت ذراعها.

قطبت ليبرتي جبينها وهما يسيران بين أولئك الذين تأخروا في تسوّقهم. ماذا حدث لها؟ إنها امرأة ناضجة وليست تلميذة مدرسة متوترة تخرج في أول موعد لها مع شاب. في الواقع، لم تشأ أن يظنها... وازداد تقطيبها... ما الذي لم تشأ أن يظنه؟ أنّ الموعد سينتهي إلى شيء سار؟

لمحت نفسها في واجهة أحد المتاجر فرأت نفسها مقطبة فسارعت إلى محو

تقطيبتها قبل أن يراها كارتر. يكفي ظنه السابق عنها أنها مجنونة.

لكنه لم يحاول التحرّش بها ولم يعطها سبباً يجعلها تظنّ أن الموعد سينتهي بطريقة مهينة. كانت قد خرجت في الماضي في موعد مع شخص حاول التحرّش بها، لكنها واجهت الأمر بشكل حسن... وهي تعلم أنها تتحكم عادة في نفسها وأنها قادرة على إيقاف هؤلاء الرجال عند حدّهم بتهكم لاذع تدافع به عن نفسها عند الضرورة. لكن كارتر ليس كغيره من الرجال، ولعل هذا هو السبب في توتر أعصابها.

أو لعل سبب توتر أعصابها هو تشوّقها لأن يعانقها، فترى كيف سيكون ذلك؟ صدمها عقلها الباطن لكنها لم تستطع أن تنكر هذه الحقيقة. لقد فتنها. إنها لا تريد هذا لكن هذا ما حدث. وتخلّت عن محاولة العثور على كلمة تصفه بها حين اقتربا من المطعم.

وقف أمام المدخل وابتسم لها بعينين لا يمكن سبر غورهما: «أرجو أن تستمتعي بوجودك هنا. صاحبه صديق لي. والحكمة التي تقول: (لكي تكون طاهياً ممتازاً عليك أن ترش المحبة على طعامك) تنطبق تماماً على آدم. فهو لا يهتم بالمظاهر والأسلوب، ولكن كل ما يحضّره رائع المذاق».

كانت تحدق إليه وهو يتكلم، وإذا به ينحني فجأة ويعانقها، وعندما استطاعت أن تتحرك كان كل شيء قد انتهى. وفي اللحظة التالية فتح باب المطعم فدخلت بينما وقف هو جانباً يمسك لها الباب لتمرّ.

وعندما أسرع إليهما رجل طويل أسمر، كل ما استطاعت ليبرتي أن تفكر فيه هو أن الأمر سيكون أشبه بالجلوس في مكان هادئ منعزل وحدهما.

تمالكت نفسها بسرعة وأرغمت أفكارها المشتتة على التركيز عندما ابتسم الرجل لكارتر ابتسامة عريضة وهو يأخذ يده بيديه الإثنتين: «كارتر، أيها الشرير، تعرف دوماً حين يكون الخروف المشوي على قائمة الطعام».

ثم تحوّلت العينان السوداوان إلى ليبرتي، وقال وهو ينحني احتراماً: «لا أظنني حظيت بشرف التعرف...».

فقاطعه كارتر هازلاً: «دع عنك الظرف يا آدم، فهذا لا ينفع مع ليبرتي، إذ حاولت أنا جهدي».

وحوّل إليها عينين باسمتين مضيفاً: «أعرّفك إلى آدم تمبل... الوغد المحتال، لكنه طاهي لا مثيل له».

لم يبد على آدم أي حرج لهذا التقديم لكنه أجاب: «ليبرتي ستكوّن رأيها بي، أليس كذلك يا ليبرتي؟».

قال هذا برقة وهو ينحني ويقبل يدها على الطريقة اللاتينية التي تتلاءم مع الشعر الفاحم والعينين الداكنتين اللتين تراقصتا بخبث وهما تشتبكان بعينيها الهازلتين.

- أنا أفعل هذا دوماً.

وابتسمت للرجل، مسرورة بهذا المشهد الذي منحها فرصة للتحكم بأعصابها المضطربة.

- يسرّني سماع هذا.

وانتصب واقفاً وأشار برأسه إلى كارتر: «ألم تفهميه بعد؟».

فأجابه كارتر بهدوء: «لم تجد وقتاً لذلك فقد تعارفنا منذ يومين فقط. والآن، ماذا عن المائدة يا آدم؟».

ابتسم آدم وأخذهما إلى الجهة الخلفية من المطعم حيث أعدّت مائدة لاثنين في كهف صغير حيث يمكن للجالس أن يرى ولا يراه أحد. رأت شمعة صغيرة مضاءة وسط المائدة التي يغطيها شرشف منشى، ناصع البياض من الكتان الممتاز، لكن المحيط كان مختلفاً تماماً عن جو مطعم فينيكس المترف.

عندما أصبحا وحدهما، رفع كارتر كأسه. وقال دون أن يبتسم وهو

ينظر إليها بحدة: «نخب معرفتنا ببعضنا البعض بشكل أفضل».

حدقت ليبرتي إليه. لم تشأ أن تعرف كارتر بشكل أفضل، ولكن، ما من شيء تريده أكثر من ذلك. وهذا جنتها... نعم، جنتها! رفعت كأسها: «نخب هذا المساء».

كان نخبها من الرقة بحيث يُفهم أنه موافقة على نخبه، ومع ذلك يعكس في الوقت نفسه نية محدّدة.

كانت المائدة الصغيرة تقرّبهما من بعضهما البعض للغاية... إلى درجة لم تلحظها إلاّ حين انحنى إلى الإمام، وعيناه تتأملان وجهها المتوهج احمراراً.

ابتسم ببطء ثم عاد واستند إلى الخلف، فشعرت وكأنها تحررت من شيء تشبث بعقلها وجسدها بحرارة.

أتراه يحضر نساءً كثيرات إلى هنا؟ لم تحب ليبرتي الطريقة التي راح ذهنها يطلق بها مثل هذه التساؤلات، ومدت يدها تتناول قائمة الطعام تنظر إلى محتوياتها: «ثمة أطباق رائعة».

- يمكنني أن أنصحك بحساء اللوز والزعفران والبندورة المشوية مع الجبن الممزوج بالفلفل الأخضر غير الحار والحمل المشوي مع الزبدة والبازلاء والتفاح.

سألته بهدوء: «أظنها الأنواع المفضلة لديك؟».

- تماماً.

- تبدو لي ممتازة.

رفع حاجبيه قليلاً: «حذار. أنت تخدعينني لأظنك أنثى لطيفة خاضعة».

رمقت ليبرتي بنظرة سريعة ولكن مهلكة فيما اقترب النادل من مائدتهما.

كان الطعام رائعاً حقاً، والحساء لذيذ المذاق، ولحم الخروف يذوب في الفم، والقهوة بالقشدة وحلوى الكاتو خفيفة ولذيذة.

وبالرغم من استمتاعها بأنواع الطعام الممتازة، إلاّ أنها كانت تعلم أن حاسة الذوق لديها لم تقدر لذة هذا الطعام تماماً. فهي متوترة الأعصاب للغاية.

لقد عرفت العديد من الرجل المحنكين الماكرين، كما كان جيرارد اجتماعياً لامعاً، إلا أن إحساسها ينبئها بأن كارتر يتفوق عليه بكثير. فهو يملك طاقة خطيرة جذبتها ونفّرتها منه في الوقت نفسه. لكن، أتراها تلعب بالنار؟ ماذا يخفي هذا الرجل في داخله؟

عندما ابتلعت آخر قضمة من الحلوى، ارتجفت فجأة من دون أن تعرف السبب فاعتبرت ذلك توتراً عصبياً.

جاء آدم مرة أخرى عندما كانا يرشفان القهوة وجلس معهما فترة قصيرة. تبادل مع كارتر بعض الدعابات البريئة المسلّية ما أثبت أنهما يعرفان بعضهما البعض منذ فترة طويلة، وما جعل ليبرتي تغرق في الضحك أكثر من مرة. شعرت بأنها أحبت ذلك الرجل كثيراً.

عندما تركهما صاحب المطعم بعد أن بالغ في مدح مظهرها، قالت بهدوء: «منذ متى تعرفه؟ يبدو أنكما صديقان حيمان».

– آدم؟ لقد نشأنا معاً. هو وأخته وأنا وجين. كانت منطقة سكنية صعبة في ضواحي لندن، ذلك النوع من الأماكن حيث الأولاد يتجهون إما نحو الجريمة والمخدرات، وإما نحو الكفاح لبناء مستقبل باهر. ما من حلّ وسطي سعيد.

– وأنت نجحت.

– هذا ما حدث.

وأومأ كارتر ببطء ولكن من دون غطرسة ثم أردف: «ثلاثة منا، على

الأقل. باربرا، شقيقة آدم، ماتت السنة الماضية على أثر جرعة مفرطة من المخدرات. كنا جميعاً نظن أنها تخلّصت من تلك العادة منذ سنوات، ولعلها فعلت. لكن الإغراء قوي جداً أحياناً. فهي، وآدم، لم يتمتعا بالميزة الكبرى التي حظينا بها، أنا وجين. هذا هو السبب».

– وما هي تلك الميّزة؟

– والدان جيدان وحياة عائلية مستقرة آمنة.

اتسعت عينا ليبرتي. كان مليئاً بالمفاجآت: «هل ما زال والداك يعيشان هناك؟».

هز رأسه وأجاب: «أخرجتهما من هناك حالما استطعت ذلك. إنهما يعيشان في منزل قريب من الساحل الآن. فهما يعشقان البحر، وبيتهما لا يخلو من الأصدقاء والزائرين».

الحرارة في صوته وهو يتكلم عن والديه لامست مشاعرها أكثر مما كانت تودّ بكثير: «لكن أختك تعيش معك؟».

– مؤقتاً. كان طلاقها منهكاً وآلمها كثيراً. وهي ترتاح الآن قبل أن تبدأ بالبحث عن بيت خاص بها.

سكت للحظة وقد قسا صوته قبل أن يتابع: «الكل لاحظ أنه لا يستحق التراب الذي تحت قدميها، عداها هي. كان الرجل يبحث عن حياة سهلة فوجدها في الزواج من أسرة بليك. وساءت الأمور بينهما عندما اكتشفت أنه يخرج مع نساء أخريات. وها هو الآن يعض أصابعه ندماً».

حدقت ليبرتي إلى الوجه الخشن الحاقد. قد تكون مخطئة لكن خطر لها أنّ جملته الأخيرة تعني أكثر من أن صهره السابق فقد زوجته. فسألته: «ألم تعد أختك تراه؟».

ردّ بابتسامة كالثلج: «لا. لم تعد تراه. إنه رجل تافه ولهذا يبقى بعيداً

إلى أن تهدأ العاصفة فيعود إلى التعلق بفتاة أخرى سهلة الإنخداع».

لم تشأ ليبرتي أن تقول رأيها وهو أن هذا الرجل إما شجاع، وإما مجنون تماماً، لكي يجرؤ منذ البداية على العبث مع شقيقة كارتر بليك. وأومأت بصمت، فذلك أسهل من أن تفكر في تعليق مناسب.

ثم قال بابتسامة حقيقية هذه المرة جعلت قلبها يخفق: «وأنت؟ لقد وجدنا أنك حرة غير مقيدة وخالية البال غير عاشقة، ومما استنتجته تلك الليلة هو أن والديك لا يعيشان معاً».

لم تستطع أن تمتنع عن الحديث عن أسرتها بعد أن تكلّم عن أسرته. لم تنتبه إلى أنها تصلّبت قليلاً، لكن كارتر الذي يراقبها بعينين مصممتين لم يفته ذلك وانتظر باهتمام أن يسمع ما لديها.

– هذا صحيح. لقد تطلّقا عندما كنت طفلة. رحلت أمي مع رجل آخر وتركتنا، أنا وأبي.

وأضافت محاولة، عبثاً، أن تبدو مرحة: «كان هذا منذ أزواج عدة».

تنهد بهدوء. غريب أمر النساء فسكرتيرته مثلاً مستعدة للتضحية بأي شيء في سبيل الحصول على طفل بعد أن أخبرها الأطباء أن لا أمل في ذلك، فيما نساء أخريات لا يهتمنّ مثقال ذرة بالأطفال ومع ذلك يحملن بكل سهولة. الطبيعة قاسية تماماً من هذه الناحية.

نبّهه وجهها المتوتر وعيناها الحذرتان ألا يستمر. لكن فضوله ليعرف هذه المرأة الناصعة البشرة وذات الشعر الأحمر على حقيقتها، قوي للغاية. فقال مظهراً بعض العطف: «إنها بداية عنيفة. هل انسجمت مع أبيك؟».

فقالت رافعة رأسها بزهو: «إنه والد رائع لم يدعني أحتاج أي شيء».

لم يكن هذا ما سألها عنه فضاقت عيناه وسأل مجدداً: «هل لك أخوة؟».

هزت رأسها، فلمع شعرها الأحمر مهتزاً في ضوء الشمعة. شعر بالتوتر

وتصلب جسمه بينما تابعت هي تقول: «لم يكن لدى أمي شعور بالأمومة. وأبي طبيب مشغول دائماً بعمله ومهتم على الدوام بأن أتعرف إلى شخص ما... حتى الساعة».

وسكتت لحظة قالت من بعدها: «والآن، وجد امرأة أخرى».

– السيدة التي كانت معه في المطعم؟

أومأت لكنها لم تتابع فسألها بهدوء: «إذن، ما شعورك الآن تجاه الحب والزواج وحياة الأسرة؟ أتشعرين بحسد أم بشك؟».

لم تصدق أنه يطرح عليها مثل هذه الأسئلة الشخصية بينما هي لا تعرفه إلا منذ دقيقتين. لكنها، مع ذلك، لم تدهش. إنه يتجه إلى بيت القصيد، هذا هو كارتر بليك سواء في العمل أو في اللهو.

أنهت قهوتها التي كانت قد بردت، قبل أن تجيب بهدوء متعمد وهي تنظر إلى وجهه عابسة: «إنه أمر حسن جداً بالنسبة إلى الذين يشعرون بالحاجة إليه ويريدونه».

فسألها برقة بالغة: «أيعني هذا أنك لست منهم؟».

هزت كتفيها، مدركة أن عينيه الصوانيتين مسمرتان على وجهها وهي تقول: «يعني أنني أعتقد أن بقاء الزوجين مخلصين لبعضهما البعض أمر غير قابل للتطبيق في الحياة، كما أنه ليس من الصواب إنجاب أطفال من علاقة غير جادة».

طيلة ست وثلاثين سنة، كان كارتر يعتقد أنه شخص مستقل يعمل ويلهو بشكل أفضل عندما لا تشغله علاقة عاطفية. لم يتساءل قط عما إذا كان يؤمن بالزواج، فقد عاش والداه سعيدين مع بعضهما البعض طوال أربعين عاماً بالرغم من المرض والفقر وكل ما واجها في الحياة، لذا اعتقد أنه يؤمن بالزواج كمفهوم عام على الأقل. لكنه كان يعلم دوماً أن الزواج ليس له.

منذ صغره، قرر أن يخرج من حياة القذارة تلك ويصنع لنفسه مستقبلاً باهراً، ولكي يفعل ذلك، عليه أن يركز اهتمامه على العمل. وعندما كسب مليونه الأول وجد أنه يحب غياب الفوضى والعاطفة عن حياته، وأن ما كان ضرورياً أصبح الآن خياراً حراً. فهو يودّ أن يستطيع السفر حالما يخطر له ذلك وألا يكون مسؤولاً أمام أحد، لا ارتباطات ولا تعهدات... كان يستمتع بكل هذا للغاية، فلماذا يرغب في مناقشة كل مبدأ سار عليه في حياته حتى الآن؟ ومع ذلك وجد نفسه يقول: «وهكذا، وجدت نفسك في جانب التشكيك وليس الحسد، أصحيح هذا؟».

فأجابت من دون جدل: «ربما، لكنك سألتني عن شعوري».

– قلت إنك ستختارين حياة الوحدة؟

حسناً، هو أيضاً فعل ذلك. تعالى هذا الصوت من أعماقه بحدة فأجابه أنه رجل وهذا مختلف، ما جعله يشعر على الفور بالفزع من نفسه.

ردت ليبرتي شعرها إلى الخلف بيد ثابتة، وقد غاظها ما تضمنه قوله من انتقاد، لكنها قررت ألا تهتم: «أنا قلت إن الإثنين عليهما ألا ينجبا أولاداً ما لم يكونا واثقين من أن حبهما أبدي. هذا هو رأيي، ولكل شخص رأيه».

كان على صواب في نادي فينيكس، فقد أفسدت أمها حياتها. قال: «والداي ما زالا سعيدين بحياتهما الزوجية منذ أربعين عاماً».

وتعجّب من قوله هذا ويبدو أنها تعجبت أيضاً. فسكتت لحظة ثم قالت: «هذا حسن. ما أجمل هذا بالنسبة إليهما».

ابتسم وقد رقّت ملامحه: «أوافقك الرأي. ربما حالتهما تمثل اثنين بالمئة من المتزوجين أما البقية فأشقياء».

فقالت باحتجاج: «أنا لم أقل ذلك».

فرفع حاجبيه ساخراً: «لكنك فكرت في ذلك».

نعم، لقد فكرت في ذلك. إنه يبدو من الرجال الذين يتزوجون مهنتهم طوال الحياة، من دون أن يكون لديه الوقت لزوجة أو أولاد. أما بالنسبة إلى العشق، فهذا أمر مختلف. إنها واثقة من أن لديه الوقت ليطلق لرغباته العنان. وفجأة، شعرت بحرارة غير مريحة وقالت بصوت لاهث قليلاً: «إذن، فقد اتفقنا على شيء مشترك؟».

– هذا ما يبدو.

كان جوابه مختصراً، لكن بما أنّ النادل اختار هذه اللحظة ليحضر قائمة الحساب، فقد مرّ الموضوع من دون تعليق.

عندما غادرا المطعم، كان الجوّ بالغ البرودة، والثلج قد غطى الرصيف. وفيما كان يساعدها على الصعود إلى سيارة الأجرة التي طلبها ارتجفت فسألها وهو يجلس بقربها في المقعد الخلفي: «هل تشعرين بالبرد؟».

وجذبها إليه واضعاً ذراعه حول كتفيها.

كان العناق كما تمنته أن يكون. واكتسحت المشاعر كيانها محرقة جلدها ما جعلها تبذل جهدها لتمنع نفسها من الإرتجاف.

– ماذا حدث؟

لا بد أنه أحس برد فعلها، لأنه رفع حاجبيه، وتابع يقول: «استرخي، تباً، فأنا لن أتجاوز حدودي في سيارة أجرة».

يا لجرأته! واستقامت في جلستها قائلة بغضب، فيما توهّج وجهها يتوهج: «صدقني يا كارتر، أنك لن تحصل على فرصة. لا أدري ما نوع النساء اللاتي اعتدت أن تخرج معهن، لكني أؤكد لك أني لست منهن».

– حقاً؟

بدا مرحاً غير منزعج من غضبها وهو يشبك ذراعيه على صدره ويتأملها بعينين غير معبرتين: «ما الذي يغريك إذن؟».

فقالت بلؤم: «أكثر مما لديك».

www.elromancia.com

فسأل بنعومة: «هل هذا تحدٍّ؟».

لم تخدعها لهجته الكسول، فقد رأت عينيه تتحولان إلى حجر الصوّان: «بل أمر واقع».

كرر وهو يمدّ يده يلامس خصلة من شعرها: «أمر واقع؟ وجهك محمّر للغاية، ودافئ وناعم ووردي بشكل لذيذ».

جعلها تبدو كصحن حلوى. وحاولت أن تقاوم المشاعر التي أحدثتها كلماته في كيانها، فهي لن تستسلم لإغرائه... أبداً.

- وتثيرين الرغبة في معانقتك.

واقترب منها ثم احتضنها مجدداً، لكن عناقه هذه المرة تحوّل على الفور إلى تصميم على الإغراء فحطم دفاعاتها كلها.

عندما وصلت السيارة إلى الشارع حيث تقيم، كانت قد تحوّلت إلى حطام يرتعش، وقد ضاعت في الأحاسيس التي أثارها فيها.

وعندما توقفت السيارة أمام بيتها ورفع رأسه، لم تستطع أن تتحرك إلا بعد عشر ثوانٍ كاملة. شعرت وكأن قدميها لا تستطيعان حملها فيما تمتم: «أمر واقع».

تمتم بهذه الكلمة وهو يفتح باب السيارة: «أتريدين أن تعاودي التفكير في ذلك؟».

مضت لحظة أو اثنتان شعرت خلالها وكأن دلواً من الماء البارد قذف في وجهها. لقد كان يعبث بها، لكي يثبت صحة رأيه. تجاهلت يده الممدودة وجاهدت للخروج من السيارة، وقد التهب وجهها. يا له من فاسد حقير محتال...

- حذار! لا نريد أن نفسد هذه الأمسية الرائعة.

جاء الصوت العميق هازلاً عندما كادت تستقر على مؤخرتها بعد أن انزلقت قدمها على الثلج الذي يغطي الرصيف.

كبحت ليبرتي الكلمات التي تسارعت إلى لسانها، ونفضت يده عن مرفقها وهي تقول: «يمكنني أن أتدبر أمري تماماً. شكراً يا كارتر وتصبح على خير، وشكراً على العشاء الرائع».

- سأسير معك إلى بابك.

- لا حاجة بك لذلك.

كانت تفضل أن يرافقها مصاص الدماء بدلاً منه.

- على العكس، فمع حذائك العالي هذا، وهذا الثلج، ثمة حاجة لذلك.

لم تشأ أن تطيل هذا الوداع بالجدال معه على الرصيف. وهكذا، حافظت على ما تبقى لها من كرامة، وسارت مسرعة نحو الدرجات المؤدية إلى بابها الأمامي، مهدئة من اندفاعها حين وجدتها مغطاة بالجليد. وعندما وصلت إلى الباب سالمة التفتت إلى كارتر الذي وقف على الدرجة السفلى وقالت بلهجة حاكت برودة الجوّ: «شكراً وتصبح على خير».

هذه هي النهاية، وهو أمر حسن.

- تصبحين على خير يا ليبرتي.

كان غافلاً عن غضبها، لكن وعلى عكس ما توقعت لم يحاول أن يعانقها، بل استدار على عقبيه واختفى في سيارة الأجرة، بينما فتحت هي بابها. كانت قد أغلقت الباب وأشعلت الأنوار عندما سمعت صوت السيارة تبتعد.

يا له من رجل فظيع! وقفت وسط غرفة جلوسها، والمشاعر تغلي في جسدها وذهنها، مشاعر لم تعرف أيّ منها. عندئذٍ، وقعت عيناها على الأزهار التي أحضرها، وتملكها الفزع وهي ترى نفسها تنفجر باكية.

٤ - خوف وارتباك

كانت كالعجينة بين يديه وقد شعر هو بذلك. نعم، لقد أدرك ذلك تماماً. وكان يحدق إليها مسروراً بشماتة، بعد كلماتها غير الحكيمة تلك. لقد أفسدت كل شيء.

تأوهت ليبرتي اشمئزازاً من نفسها للمرة المئة هذا الصباح وألقت بصحيفة الأحد جانباً وهي تنهض فجأة لتذرع أرض الغرفة قبل أن تتمالك نفسها وتعود للجلوس. اهدئي يا فتاة! اهدئي. . . وأخذت تجري بعض تمارين التنفس التي تعلمتها منذ سنوات، لكن من دون جدوى.

ما الذي ظنه؟ كان الجواب واضحاً. وعادت تتأوه كما فعلت طوال الليل حيث جافاها النوم طويلاً. راحت تحلل كل دقيقة مرت بهما وما حفلت به من كلام أو حركات أو نظرات سواء أثناء تناول الطعام أو في السيارة. لا بدّ أنه يظن أنها تقول شيئاً وتفعل شيئاً آخر!

لم يسعَ لرؤيتها مرة أخرى. وهذا لا يعني أنها ستوافق على ذلك، لم تكن لتوافق طبعاً. أبداً! ومع ذلك، كان ليسعدها أن ترفض، أن تهز غرور ذلك العملاق قليلاً.

وتملكها شعور غير مريح بأن كارتر انتصر. أبعدت شعرها عن عينيها باضطراب، ثم نهضت فجأة وسارت إلى غرفة النوم حيث أعادت تسريحه وعقدته إلى الخلف. وعندما انتهت حدقت إلى نفسها في المرآة بعينين حزينتين وشخرت غاضبة من نفسها.

هذه ليست نهاية العالم. نعم، لقد تصرفت بحماقة لكنها ليست المرة الأولى التي تفعل ذلك ولن تكون الأخيرة. بعد أسبوعين، ستصبح المسألة

منسية، شيئاً من الماضي.

عادت فتجاهلت سخافة هذه الفكرة وتوجهت إلى المطبخ لتحضّر لنفسها كوباً من القهوة. سترتاح وتستمتع بصبيحة يوم الأحد قبل أن تنجز بعض العمل المستعجل الذي أحضرته معها من المكتب. بعدئذ، ستستمتع بحمام طويل معطر، ثم تنام باكراً لتنهض صباح الإثنين منتعشة متألقة.

قطعت لنفسها بعض الكيك مع القهوة، وقطعة أخرى للطير في القفص قبل أن تعود إلى غرفة الجلوس وقد أنعشها هذا الاتصال القصير بالطير الصغير. وأخيراً، ألقت بكل تفكير في كارتر بليك خلف ظهرها وهي تجلس وتتناول الصحيفة مجدداً.

لم تكن قد قرأت كلمة واحدة حين تعالى الطرق على الباب ما جعلها تقف على قدميها. منذ مدة طويلة، دعت أصدقاءها ليمروا عليها لتناول القهوة صباح الأحد إذا كانوا في المنطقة، فهذا هو اليوم الوحيد في الأسبوع الذي تكون فيه واثقة من أنها ليست في المكتب. لطالما اعتادت أثناء أشهر الصيف أن تكون في الحديقة مع شخص ما، كما كان أصدقاؤها يرافقونها إلى بيت أبيها لتناول الغداء فالسيدة هاريس تطهي دوماً ما يكفي لإطعام من تحضر معها. على أيّ حال، أخبرت أباها بأن من المحتمل أن تكون مشغولة هذا الأسبوع، لكي تمنحهما، هو وجوان، فرصة قضاء أول عطلة أسبوعية معاً بمفردهما.

فتحت الباب بابتسامة سرعان ما تلاشت وهي ترى كارتر بليك: «مرحباً».

بدا غير واعٍ على الإطلاق لدهشتها وهو يتصرف وكأنها كانت تنتظره إذ قال: «هل ما أشمه هو رائحة قهوة؟».

- ما. . . ما الذي جاء بك إلى هنا؟

لا شيء في ابتسامة كارتر الهادئة كشف أنه طرح على نفسه السؤال

نفسه. كان قد ألغى موعداً على الغداء، وأغضب زميله في لعبة الغولف حين اتصل ليعتذر كي يأتي لرؤية امرأة بدا واضحاً أنها تتمناه في مكان آخر. والآن، ها هوذا يكذب ويقول: «وجدت نفسي فجأة وحيداً وغير مرتبط فتساءلت عما إذا كنت تحبين تناول الغداء معي. فأنا، عادة، يصيبني الاكتئاب وأبكي إذا أكلت وحدي».

نظرت إليه بارتياب. إنه من الرجال الذين يمكنهم أن يمضوا أوقاتهم سواء مع رفاق أو بدونهم، وهذا واضح. تجاهلت الحماسة التي تملكتها لرؤيته، وتسارع نبضات قلبها، وقالت بحذر: «سأذهب إلى العمل بعد الظهر. لهذا، أنا مشغولة جداً الآن».

- بإمكانك ذلك، فلن تتأخر في العودة.

ورفع عن جبينها خصلة من شعرها فتكهرب كيانها.

كانت واعية إلى أنها لا تضع على وجهها أيّ زينة وأنها ترتدي أقدم بنطلون جينز وقميص لديها. لقد جاء ليراها. إنه يريد أن يراها مرة أخرى. وابتلعت ريقها: «تفضل بالدخول. هل تريد قهوة؟ إنها محضّرة».

- إني أتلهف إلى كوب منها.

وما إن دخل إلى بيتها الصغير، حتى بدا وكأنه تقلّص ما جعلها تضطرب. لم تكن واثقة مما إذا دعته للجلوس، لكن عندما تبعها إلى المطبخ توترت أعصابها فأوشك إبريق القهوة أن يسقط من يدها: «إنها قهوة فورية، مع الأسف».

التفتت إليه ثم تمنت لو لم تفعل إذ كان وراءها مباشرة، وقد بدا ضخماً للغاية.

- القهوة الفورية ممتازة. هذا المكان مثلك.

لم يبد عليه أنه لحظ اضطرابها وهو يجلس على كرسي المطبخ وينظر حوله باستحسان.

ماذا يعني هذا؟ لم تعرف ما إذا كان هذا مديحاً أم لا. نظرت إليه بحذر، فلاحظ نظرتها وأجفلها حين أرجع رأسه إلى الخلف مقهقهاً: «بيتك غير عادي ورائع الجمال. فيه طرافة ورقّة، وذوق وصفاء».

صفاء؟ إذا كان يظنها صافية فهو مجنون.

حدقت إليه متسائلة كيف يستطيع أن يبدو أطول وأعرض وأكثر جاذبية في كل مرة تراه فيها. وتنحنحت: «شكراً. كيف تحب قهوتك؟».

- ساخنة وثقيلة، ولا تفسري ذلك بمعنى آخر كما تفعل النساء.

قال ذلك بمكر فلم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام. فأضاف وهو يميل نحوها وعيناه تلمعان: «هذا أحسن. أنت تعلمين أنني معجب بك يا آنسة فوكس، ويمكنك أن تبادليني الشعور نفسه إذا حاولت. إننا متشابهان جداً».

فقالت غير مصدقة: «نحن متشابهان؟ هذا مستحيل».

- بل مؤكد.

قال هذا مؤنباً وهو ينزل عن مقعده المرتفع فتوترت حواسها. بدت لهجته مداعبة لكن عينيه كانتا جادتين للغاية فيما داعب إصبعه وجنتها. حاولت أن تذكّر نفسها بما شعرت به الليلة الماضية في السيارة حين عانقها لكي يثبت حجته لكن من دون جدوى.

- أنت تحبين الصدق في العلاقة وأنا أيضاً. أنت لا تبحثين عن خاتم زواج وعهود وحب لا يموت، وأنا أيضاً. تمثيل دور الأسرة السعيدة مع أطفال ليس في برنامجك ولا يندرج في برنامجي أيضاً. هل ثمة حاجة للاستمرار؟ يمكننا، أنا وأنت، الاستمتاع بوقتنا معاً. أنا واثق من ذلك.

انحدر إصبعه إلى ذقنها بإغراء فاتسعت عيناها وهمست: «كارتر؟».

أسكتها حين ضمّها إليه، وعانقها طويلاً. وعندما رفع رأسه، لم تتذكر ما كانت تريد أن تقوله. وحاولت أن تجمع أفكارها المشتتة، لكن عقلها

كان يدور ويدور.

قال بصوت أبح: «أحب بشرتك الناعمة الحريرية وشعرك الرائع الجمال. هل تعلمين كم من لون يتموج فيه؟ وكيف يلمع كلما حركت رأسك؟ كما أن عينيك عميقتان مخمليتان، و...».

- الـ... القهوة.

لم تعد تستطيع الاحتمال. لقد اعتاد على النساء ذوات الخبرة، نساء لا يهمّهن سوى المتعة وبعض المرح.

- تباً للقهوة!

- لا، يا كارتر، اسمع، أرجوك.

وابتعدت عنه خطوة وهي تقول: «أنا لست... أنا لا...».

وسكتت فجأة وتنفست بعمق لتهدئ من خفقات قلبها.

أحست بالجوّ مشحوناً بالكهرباء، وبالتوقّع، فحاولت مرة أخرى: «ما أعنيه هو...».

رفع يده يسكتها: «ما تعنيه هو أنك تريدين أن تأخذي وقتاً لتعرفي الشخص. أليس كذلك؟ هذا يناسبني، ولا أرضى بأقل من هذا».

- لا... نعم.

وسكتت وقد تشوش ذهنها وتملكها الارتباك للسرعة المفاجئة التي تغيرت فيها حياتها، إذ تغيرّت في غضون أيام قليلة. ونظر إليها بصمت، منتظراً. عندما قالت ذلك اليوم، إنها تنام دوماً وحدها، لم تكن تعني... لكن لا، هذا مستحيل.

قالت بفتور ينبئ بتحكم بالغ بالنفس: «لقد تطلقت أمي من زوجها الخامس، بعد أن اعترض على خيانتها له مع زميله في العمل وهذا ما يمكنني تفهمه من باب الإنصاف. زميل العمل ذاك لم يكن عند حسن ظنها على أيّ حال، ورفض أن يترك زوجته وأولاده مما أفسد مشاريع أمي التي تسعى

دوماً إلى الأعلى. أمي تمارس التمارين الرياضية يومياً، وتنفق أموالاً طائلة على عمليات التجميل، ومع ذلك لا تحترم جسدها على الإطلاق إذ بإمكان أي رجل أن يشتريه».

ولأول مرة في حياته، لم يعرف كارتر ما عليه أن يقول.

- أنا لا أحتاج إلى رجل في حياتي، فبإمكاني أن أعيل نفسي. وأنا أحب ذلك. آسفة إذا جعلتك تظن غير هذا.

سألها بهدوء: «أتكرهينها؟».

صدمتها هذه الصراحة: «ماذا؟».

- أمك. هل تكرهينها لأنها تركتك، مضيفة إلى هذه الخطيئة خطأ الانتقال من رجل إلى آخر؟

إنه ذنبها، لقد أخبرته كل شيء، ولكن أن تُختصر حياتها بجملة واحدة خشنة لم يكن أمراً سهلاً. شعرت بالاحمرار يعلو وجهها، وتمنت لو لم تفتح فمها أبداً. لكنها فتحته وهو الآن يعلم. وقالت بعد فترة طويلة: «حاولت ذلك على مرّ السنين، لكنها أمي. لا، أنا لا أكرهها، إنني أحبها لكنني غير معجبة بها على الإطلاق».

- لماذا تأثرت بها إذن أكثر مما تأثرت بأبيك؟

- ماذا؟ أنا لم أتأثر بها. أنا أحب أبي وهو رجل رائع. ولطالما استمعت إلى نصائحه.

- لا أظن ذلك. لقد اعترفت بنفسك بأن أمك وضيعة خلقياً، بينما أبوك على عكسها. ومع هذا، تصرّين على إدانة الرجال، والزواج، والحياة بشكل عام. في الواقع، أنت تشعرين نحوها بخيبة أمل.

شعرت ليبرتي بغضب لم تشعر بمثله منذ سنوات: «أنت لا تعلم شيئاً عن ذلك. أنت لا تعرفني ولا تعرف أبوي».

فقال بهدوء: «هذا صحيح. ولهذا، أنا مؤهل لأن أعطي رأياً عادلاً

ومحايداً، من دون مشاعر متورطة تفسد الموضوع».

قالت بصوت بارد: «أريدك أن تخرج الآن وألاّ تعود مرة أخرى».

– وأنا أريد أن أنظر إليك وأعانقك حتى تعجزين عن التنفس. وهكذا، يبدو أن أياً منا لن يحصل على ما يريد.

لم تعرف ليبرتي ما عليها أن تقول. حدّقت إليه، وقد شعرت بأنّ بعض ما قاله جرح كرامتها بشكل يفوق الوصف، ومع ذلك، أحسّت برغبة في الانفجار بالضحك، لأنها لم تعرف رجلاً مثله في حياتها. وبسطت يديها بعجز فيما تصاعد صوت الماء الغالي في الإبريق.

– لماذا لا أحضّر لنفسي القهوة بينما تغيرين أنت ملابسك كي نخرج لتناول الغداء؟

قال هذا وكأنهما كانا يتحدثان لتوّهما عن موضوع رياضي وليس عن أكثر الأمور حميمية بالنسبة إليها. وتابع يقول: «ثمة مقهى في «هارلو» تحضّر صاحبته فطائر لحم لذيذة الطعم، وفطائر التوت التي تحضّرها تستحق جائزة».

مضت لحظة ظن فيها أنها سترفض عرضه وتطرده من بيتها مرة أخرى... ولكن، وبعد لحظة طويلة أومأت برأسها وفمها يرتجف، ثم تركت الغرفة.

حضّر كارتر قهوته ثقيلة سوداء ثم عاد يجلس على المقعد المرتفع. بالنسبة إلى امرأة هادئة ومنضبطة ومستقلة، بدت الآن عاجزة بشكل مفزع.

ثمة هشاشة في شخصيتها وعدم ثقة بالنفس ما يثير الاستغراب نظراً لنوع العمل الذي تمارسه. إنها امرأة مليئة بالتناقضات. وضاقت عيناه مفكراً.

هل من العدل أن يستمر في رؤيتها مدركاً أنه لا يبغي من وراء ذلك سوى بعض المتعة؟ نظر إلى حذائه مفكراً، لكنه سبق أن أوضح لها ما يريده كما أنه والحق يقال، لم يعد بإمكانه أن يتركها الآن كما أن تأثيرها عليه

أصبح قوياً. وهو لا يعرف متى حصل ذلك، لكنه حدث وانتهى الأمر. لقد مضت سنوات منذ كان يغرق في التخيلات والأحلام، لكن ليبرتي فوكس غزت عقله في النوم واليقظة منذ قابلها. لم يعجبه ذلك، وقطّب حاجبيه.

استرخى في المقعد وقد تملكه الرضى لأنه واجه المشكلة بشكل منطقي. سيتمهل في الأمر ولن يستعجل... وتجاهل مشاعره التي التهبت حين ضم جسدها إليه، والتي بقيت فترة حتى بردت. هذا ما سيفعله وسيرى ما يحصل.

أنهى قهوته بجرعة واحدة وغسل الكوب ثم صعد إلى الطابق العلوي لينتظرها.

لم يبالغ كارتر في وصفه الطعام. كان المقهى مؤثثاً بالنحاس وخشب السنديان كما كانت النار المشتعلة في المدفأة الفسيحة تضفي عليه تألقاً.

إذا ما تكررت مواعيدها مع كارتر فستصبح سمينة منتفخة كبالون صغير... ولهذا سألته: «كيف تعرف كل هذه الأمكنة حيث الطعام اللذيذ؟».

استند كارتر إلى ظهر كرسيه وابتسم لها: «لم آخذك سوى إلى مطعمين. ما زال أمامنا الكثير».

احمر وجهها قليلاً فهي لا تعرف ما إذا كانت تريد أن تخرج مع هذا الرجل مرة أخرى. وساورها شعور بأن كارتر بليك عندما يدخل حياة امرأة، يترك خلفه فراغاً عندما يفترقان لا يمكن أن يملأه شيء.

وتابع يقول وكأنه لم يلاحظ وجومها: «لطالما اعتبرت الطعام من ملذات الحياة الرئيسية، لكنه ليس ألذها طبعاً...».

ولمعت عيناه بخبث لكنها رفضت أن تدع وجهها يتورد.

وأضاف من دون خجل أو رثاء للنفس، بل بلهجة واقعية تماماً: «لكنه

ممتع للغاية. ربما لأنني، عندما كنت في مقتبل العمر، كان طعامنا رخيصاً ومشبعاً دوماً. كانت أمي تحرص على ألاّ نأوي إلى الفراش جائعين، فليباركها الله. وهكذا، كنا أحسن حالاً من كثيرين. لكن البطاطا المسلوقة والخبز والحلوى المملّة المصنوعة من الدقيق والبيض والحليب، تثير السأم».

- ألم تفكر في أن تصبح طاهياً مثل آدم؟

- يا إلهي، لا. هل يمكنك أن تتصوريني بالقبعة البيضاء الطويلة والمئزر؟

وابتسم ابتسامة عريضة بطيئة فقالت باسمة: «إنه يسمّى المريول وليس المئزر».

- مهما يكن. كان على جين أن تتزوجه.

فنظرت إليه بدهشة: «آدم؟».

- منذ الطفولة كان ثمة شيء مشترك معيّن بينهما. بعض الناس هكذا.

وجالت عيناه المثقلتان بأهدابهما الكثة على وجهها. ولسبب ما، تملك ليبرتي شيء من الخوف.

- ماذا حدث لهما؟

طرحت سؤالها بحذر، محدّثة نفسها بأنّ ما قاله لا يحمل أيّ معنى مبطن. لقد سبق وقال إنه لا يهتم بالالتزام، وإلى الأبد. أليس هذا ما قاله؟

هز كارتر كتفيه: «لا أدري. إنها الحياة وحسب. التحقت جين بالجامعة فيما انشغل آدم بمتابعة دورات في تعهدات الأطعمة وفي العمل ساعات إضافية. وعندما تخرج، وقرر أن يعمل في مهنته، عادت جين من الجامعة بصحبة صديق غريب. وكان ردّ فعله أن أخذ يخرج مع فتاة أخرى».

وسكت ثم بدت في صوته نبرة انفعال وهو يعود فيقول: «عبث أحمق. عبث خرج عن السيطرة».

- ثم تزوجت شخصاً آخر.

- نعم. بعدئذٍ، أخذ آدم يخرج مع فتاة تلو الأخرى. كان يفضل أن يقطع عنقه على أن يعترف بأنه خسر جين. يا للطبيعة البشرية الحمقاء!

كبحت ليبرتي ابتسامة جافة. إذا كان آدم يتمتع بقدر كبير من الكبرياء الرجولية، فإن لكارتر حمل شاحنة منها. قالت: «لكن وبعد أن تطلقت أختك أصبح لديه فرصة، أليس كذلك؟ إذا كان الإثنان لا يزالان يريدان بعضهما البعض».

فقال بجفاء: «إذا أرادا العودة إلى بعضهما البعض، فآدم لم يتحرك حتى الآن كما لم تفعل. ومع ذلك، سيجتمعان في الحفلة التي سأقيمها لأبويّ في عيد زواجهما الأربعين في الشهر القادم. أما أنت، فاحرصي على أن تكوني حرة أثناء العطلة الأسبوعية».

ألقت عليه نظرة جامدة قبل أن تتمالك نفسها لتقول: «حفلة أبويك؟ لكنهما لا يعرفانني. لا أريد أن أكون متطفلة».

لا بدّ أنها ستشعر وكأنها سمكة خارج المياه.

- ستكونين معي، وبهذا لن تتطفّلي على أحد.

لم تعرف ليبرتي بماذا تجيب. تملكها شعور بأن الأمور تتحرك بسرعة وتخرج عن سيطرتها. وأخيراً قالت: «شكراً! يسرّني جداً أن أحضر إذا لم أكن مشغولة».

وستحرص على أن تنشغل بعمل مستعجل.

أسبل كارتر جفنيه لحظة، مخفياً النظرة الغاضبة في عينيه. إنها الجملة المعهودة التي تعني التهرّب. بعدئذٍ، قال وهو يسكب كوبي قهوة: «هذا حسن. . . أمامنا وقت طويل لتطلعيني على جوابك فالحفلة لن تقام قبل العشرين من الشهر».

أومأت شاعرة بالارتياح وهي تراه لا يهتم بنوعية جوابها، ومخفية وخزة

الألم الذي شعرت به بجانب الإرتياح.

تابعا الحديث في مواضيع متفرقة، لكن الحديث اتخذ منحىً أكثر أمناً. أخبرته بتفاصيل حصولها على بيتها الصغير والتغييرات التي أحدثتها فيه، كما أخبرها هو كيف حوّل مصنعاً متوقفاً عن العمل قرب «نوتنهيك» إلى منزل صغير بأربع غرف نوم. وعندما نهضا ليغادرا المقهى قال لها: «تعالي لتريه. جين خرجت للغداء مع بعض الأصدقاء إنما لا بدّ أنها عادت الآن».

أدركت أن عليها أن ترفض. فهذا يثبت أولاً أنها مسيطرة على الموقف وعلى هذا الرجل المزعج. وثانياً، لأنها مشغولة حقاً في البيت. ومرافقته إلى بيته دليل غير صحيح على أنه يثير فضولها وأنها ترغب في معرفة المزيد عنه. وطرفت بعينيها وهي تفكر في المثل الذي يقول إن الفضول قتل القطة، لكنها لم تستطع منع نفسها من ذلك.

قالت: «زيارة سريعة إذن. أنا مشغولة حقاً الليلة».

قالت هذا بضعف وهو يقودها خلال حشد من الفتية دخلوا لتوّهم وملأوا المقهى.

- عمل دوماً من دون لهو...

- بل أنا ألهو. ألهو عندما يسمح لي الوقت.

ردت عليه بذلك وهما يسيران معاً نحو سيارته المرسيدس التي بدت خدوشها الواضحة وكأنها تعنفها.

قال يهدئها إنما بلهجة تفيض بعدم التصديق: «يسرّني سماع هذا».

رأت ليبرتي أن اللجوء إلى الصمت أفضل حلّ للحفاظ على كرامتها.

وعندما توقفت بهما السيارة أمام المبنى المربع الفسيح، بيت كارتر، كانت ليبرتي قد أعدت نفسها لما سترى. ومع ذلك، توترت أعصابها حين رأت حجم المنزل. إذ شعرت بأن ثراء كارتر يثبّط الهمة.

انفتحت بوابة حديدية عملاقة في جدار عالٍ بجانب المبنى بواسطة جهاز تحكم عن بعد موجود في السيارة. وعندما دخلت السيارة هادرة، وجدت ليبرتي نفسها في منطقة فسيحة مبلّطة، حيث رأت ساحة تتوسطها نافورة تحيط بها المقاعد والطاولات، ومرآباً ومشواة ضخمة للحوم تغطي أحد الجدران.

دخلا من باب مقنطر مهيب. وحين نزلا من السيارة عند أسفل سلّم فسيح، قادها إلى غرفة جلوس فسيحة للغاية، تغطي أحد جدرانها نوافذ متقاربة تمتد من الأرض حتى السقف. كانت الأرض الخشبية والستائر بألوانها المتدرجة من البني إلى البيج مؤثرة بجمالها، وتعطي انطباعاً بأن المنزل منزل رجل عازب... وكارتر أعزب، كما فكرت ليبرتي بجفاء.

- يبدو أن جين لم تعد. تعالي أريك بقية المنزل ثم تعطيني رأيك.

وساعدها على خلع معطفها وألقى به على أريكة.

وجالت في الطابق الأرضي على غرفة طعام ومطبخ ومكتب. أما في الطابق العلوي، فرأت ثلاث غرف نوم للضيوف، وغرفة صاحب البيت الكبيرة مع حمامها الرخامي والبانيو الذي يتسع لاثنين، فيما احتلت القبو بركة سباحة وغرفة بخار ورياضة.

كانت الجدران كلها من المرمر والجص ما جعلها تتألق بشكل جميل. لم تلاحظ أيّ اهتمام بالتوافه أو تحف تافهة منثورة هنا وهناك أو أثاث غير منظم بل بساطة رائعة وهادئة. ولم تستطع ليبرتي أن تتخلص من انطباع تملكها بأنها في فندق فخم ذي روعة هادئة، وزاد في ذلك الموسيقى والتلفزيون وحرارة الغرفة والنور التي يتم التحكّم بها بواسطة جهاز تحكم عن بعد وذلك في كل غرفة. هذا ليس منزل رجل يفكر في تأسيس أسرة.

أبدت استحسانها وتقديرها لكل ما رأته. وغصت بريقها وهي ترى غرفة صاحب المنزل الرئيسية بسقفها المغطى بالمرايا وسريرها الضخم. لكن عندما عادا إلى قاعة الجلوس أدركت أن المنزل كله لا يعبّر عن شخصية

كارتر على الإطلاق، وشعرت بأن هذا فعل متعمّد.

- لم يعجبك.

كانت جملته إقراراً وليس سؤالاً، لكن ليبرتي اختارت أن تعتبرها سؤالاً فأجابت: «أعجبني طبعاً. من الذي لا يعجب بمثل هذا المنزل الرائع؟».

ابتسم وهو يمد يده يلامس شعرها ثم قال بنعومة: «يا للكاذبة الصغيرة! لا يهمني إذا لم يعجبك، وبالمناسبة، إنه لا يعجب جين».

- بل أحبه، ولكن...

فسألها وهو ينظر إليها هازلاً: «ولكن ماذا؟».

- إنه ليس... لا أدري، يفتقر إلى جوّ البيت كما أظن. لكنه رائع الجمال.

رفع ذقنها ينظر في أعماق عينيها البنيتين الناعمتين قبل أن يعانقها. شعرت بخفقات قلبه القوية وهو يضمّها إلى صدره فتغمرها رائحته الدافئة، ثم قال بنعومة وهو يركز ذقنه على شعرها الحريري: «في طفولتي، كان منزلنا صغيراً جداً، بالكاد يتسع لنا، وأظن أنّ هذا البيت رد فعل عنيف على ذلك».

- لم أرغب قط بمنزل فسيح.

قالت هذا بالنعومة نفسها، آملة أن تضع حداً لهذه المراوغة المفاجئة والجوّ الحميم الذي أحاطهما وهو يأخذها بين ذراعيه.

- فتاة حكيمة.

لم تر وجهه لكن صوته لم يكن ضاحكاً، ربما لأنه أحنى رأسه مرة أخرى فلم يعد الحديث ضرورياً.

ونقلتها المشاعر إلى عالم آخر حيث لا يهم فيه سوى الأحاسيس.

لم تشعر بمثل هذا الشعور قط من قبل، هذا ما خطر لها وقد تملكها الدوار.

وأخذ ذهنها يبحث عن صفة مناسبة لما تشعر به. لكن، عندما تعالى صوت امرأة ينادي كارتر، كانت الصدمة بالغة.

- كارتر، لقد عدت. كان الغداء مقرزاً. أنا سوف...

كانت ليبرتي قد قفزت مبتعدة لدى سماعها أول كلمة وراحت تسوّي مظهرها. وهكذا، عندما بدت جين عند العتبة، كانت حملقة أخيها هي التي أسكتتها وليس مظهر الارتباك البادي على ليبرتي.

كان كارتر هو أول من تمالك نفسه وقال بصوت هادئ ووجه خال من أي تعبير: «مرحباً يا جين، هذه ليبرتي. ليبرتي، أقدم لك جين».

وغلبت المفاجأة اللباقة لدى جين وهي تقول: «آسفة.. لم أدرك... أعني...».

فقاطعها كارتر بشبه ابتسامة: «أظن أننا نعلم ما تعنين. هيا، ألقي التحية بلطف».

مدت جين يدها إلى ليبرتي مصافحة بعد أن مدت لسانها بشكل سريع وأخوي لكارتر: «مرحباً. أظننا تحدثنا ذلك اليوم هاتفياً، أليس كذلك؟».

- هذا صحيح.

حصل هذا منذ يومين فقط، ومنذ ذلك الحين تطوّرت علاقتها بكارتر... ولم تشأ ليبرتي أن تفكر إلى أيّ حدّ تطوّرت علاقتهما.

قالت جين وهي تغضن أنفها الصغير: «أرجو أن يكون غداءكما أفضل من غدائي. فالطعام كان بارداً، واللحم قاسي، والبطاطا كالحديد».

فقال كارتر بعدم اهتمام بالغ: «يا للحظ السيء».

سألت جين ليبرتي متجاهلة أخاها: «أترغبين في كوب قهوة؟ سأحضر إبريقاً مع شطائر محمصة».

- شكراً، فأنا مضطرة حقاً للذهاب.

مدّت شقيقة كارتر يدها وهي تقول بلهفة حقيقية: «أرجوك، لا

تذهبي. أتحرّق شوقاً إلى التعرف إلى المرأة التي أحدثت كل هذا التأثير في أخي».

فقاطعها كارتر ببرود: «لم يكن التأثير هاماً . . . مجرد خدوش قليلة في طلاء السيارة».

لم تكن ليبرتي تصغي جيداً، فهي لم تشعر بمثل هذا الإرتباك منذ أيام المراهقة.

قالت وهي تبتسم لشقيقة كارتر، آملة ألاّ يكون وجهها محمرّاً: «آسفة، فيجب أن أذهب حقاً. لدي عمل مستعجل عليّ أن أنهيه لأقدمه في اجتماع غداً. لقد أنهيت وكارتر جولتنا في أنحاء المنزل».

- إنه مجدب، أليس كذلك؟ مليء بألعاب الصبيان وبكل الأدوات المبتكرة. لكنني أرجو أن يكبر.

كانت جين صغيرة الجسم وجميلة تزيّن خدّيها غمازتان.

- قولي وداعاً يا جين.

لا بد أن النظرة الجانبية التي رمقت بها جين أخاها أقنعتها بأنها تجاوزت حدها لأنها قالت بصوت وديع: «وداعاً يا ليبرتي. سرّني أن أتعرّف إليك».

- وداعاً.

بعدئذٍ، ساد الصمت بينهما حتى تجاوزا «توتنهيل» فقالت: «أختك لطيفة».

- عندما أفكر في جين، لا تخطر في بالي كلمة واحدة. خاصة اليوم، على أي حال.

فابتلعت ريقها بصعوبة وقالت: «أرجو ألاّ تكون قد ظنت . . .».

ولم تعرف كيف تعبّر عما في ذهنها.

- ظنت أنني أعانقك؟ ولكن هذا ما كان يحدث فعلاً. ثمة عناق وعناق. الجدة تعانق أحفادها، الأصدقاء يتعانقون عندما يحيون بعضهم

البعض.

وقالت بضعف: «أنت تعرف ما أعنيه».

فرفع حاجبه: «أحقاً أعرف؟»

يا للرجل الكريه، ولم تتنازل وترد.

- ليبرتي، لماذا يهمك مثقال ذرة ما تظنه جين؟ إننا نتقابل وهي لا تتوقع منا الامتناع عن أي احتكاك.

إننا نتقابل؟ متى تقرر هذا؟ وتنفست بعمق: «اسمع يا كارتر . . .».

- نحن نتقابل يا ليبرتي. أعلم أن عقلك الذكي لديه مئة حجة ليمنع حدوث ذلك، ومع ذلك فهو يحدث. اسمعي وثقي بكلامي، أنا أريد أن أراك وأنت تريدين أن تريني. الأمر بسيط حقاً.

لم تصدق ما تسمعه. يا لغطرسة هذا الرجل. وحاولت أن تظهر له ما تشعر به من استياء وغضب لكنها فشلت في ذلك. فهي ترغب في أن تراه. إنها ترغب في ذلك إلى حد تحوّلت معه الرغبة إلى ألم جسدي، وهذا أمر خطير لأنها ليست من النوع الذي يعشق الأخطار.

قال بوجه جامد وعيناه على الطريق: «أنا لا أطلب منك أكثر مما تريدين أن تعطيه، سواء جسدياً أو عاطفياً. وسيحصل ذلك بما تريدينه من السرعة أو التمهّل، فما رأيك».

فسألته بعد لحظة تردد: «بصفتنا صديقين؟».

ردد غير مصدق: «بصفتنا صديقين؟ عزيزتي، في حال لم تلاحظي بعد، فعليّ أن أخبرك أن شعوري نحوك يختلف عن شعور الصداقة. آدم صديق . . . وصديق جيد، أما أنت فشيء آخر».

لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام: «لا بأس، لسنا صديقين بالضبط. لكنني لا أريد علاقة متعبة يا كارتر فأنا غير مستعدة لهذا بأي شكل».

ألقى عليها نظرة سريعة متفحصة وقال: «ثمة أمور عدة تثقل ضميري لكن إكراه امرأة ليس أحدها. تسارعت الأمور، لنعش كل يوم بيومه، ما رأيك؟

لم تستطع أن تجيب، أو أن تتكلم. من المفروض أن يكون هذا حسناً جداً. هذا هو المفروض لأنه أكثر من عقلاني. لقد فكر في المسألة جيداً، فلماذا تشعر بكل هذا الخوف؟ وبكل هذا الارتباك؟ وتملكها الغضب من ضعفها، الذي عجزت عن مواجهته وقالت أخيراً: «هذا حسن. فليكن كل يوم بيومه».

٥ - عودة الماضي

لم يعد بإمكان ليبرتي أن تنكر أن الأسابيع الثلاثة التي تلت أسعد أيام حياتها، لأنها كانت كذلك فعلاً.

كانا يتقابلان كل مساء، وعلى الغداء أيضاً، فوجدت ليبرتي نفسها تتساءل عما كانت تفعله في وقت فراغها قبل أن يملأه كارتر. لكن الحياة قبله لم تعد سوى مجرد ذكرى غامضة.

اصطحبها إلى المسارح والسينما والمعارض الفنية والمطاعم، لكنهما قاما أيضاً بنزهات طويلة حيث اعتادا أن يتحدثا ويضحكا ويتناقشا في كل شيء، وإذا ما تحوّل الموضوع إلى أمها فكانت لا تغضب.

حضرت العشاء لكارتر مرتين في بيتها الصغير، كما تناولا العشاء مع جين في منزل كارتر أيضاً. وكلما زادت معرفتها بشقيقة كارتر كلما ازداد حبها لها. وعندما طلبت منها أن ترافقها في فرصة الغداء لتريها شقة أعجبتها، وافقت على الفور.

قالت جين: «لا أحب أن أطلب ذلك من كارتر فذوقه مختلف عن ذوقي تماماً. البيت المثالي بالنسبة له هو عبارة عن غرف فارغة يبدو وكأن كل شيء فيها خرج من الأرض أو الجدار عندما يضغط على أحد الأزرار. منزل خالٍ وكل ما فيه تحت التحكم».

فقال كارتر بكسل: «هذه مبالغة نوعاً ما. ولكن عندما تجدين بيتاً يناسبك، سأرسل بيتر ليراه قبل أن تشتريه».

قالت لها جين: «إنه صديق كارتر الذي يجري المعاينات. إنه يتصل به

عند احتمال وقوع مشكلة ما، أليس كذلك يا كارتر؟ هذا مخيف نوعاً ما إذا فكرت فيه».

تأمل كارتر أخته ثم قال بلطف: «أحب أن أراقب الأمر فترة قبل اتخاذ القرار».

في اليوم التالي، ذهبت المرأتان لمعاينة شقة تضم غرفتي نوم في الطابق الأول في «نايتسبريدج». كانت الشقة مشرقة دافئة، تطل على مناظر رائعة لحدائق عامة، وكان الأمن في المبنى جيداً.

وبعد أن أعلمت جين وكيل البناية بأنها ستبلغه في الصباح التالي ما إذا كانت ستستأجر الشقة، دعت ليبرتي لتناول الغداء في مطعم صغير. وبعد طلب الطعام، مالت جين إلى الأمام وقالت: «إنه مجنون بك. أنت تعلمين هذا، أليس كذلك؟ إنه مجنون بك تماماً. لم أره بهذا الشكل قط».

كانت ليبرتي قد اعتادت صراحة جين في الأسابيع الماضية، لكنها، ورغم ذلك، فوجئت قليلاً إلاّ أنها لم تراوغ بل قالت باسمة: «وهو يعجبني أيضاً».

كانت ترجو أن ينتهي الحديث عند هذا الحد، لكن جين أغمضت عينيها لحظة، ثم قالت ساخطة: «يعجبك فيلم ما، أو كتاب، أو الشوكولا، أو أعجبك أنا. هيا، اعترفي...».

لكن ليبرتي لم تكن واثقة مما يمكنها أن تقوله، فيما أردفت جين: «لكنك لا تعجبين برجل مثل كارتر... إنها كلمة... ضعيفة جداً. إما أن تحبيه بجنون، وإما أن تكرهيه وتتقززي منه. إنه من هذا النوع من الرجال».

ارتشفت ليبرتي جرعة من كأس المياه المعدنية، ثم قالت ببرودة: «أنا أخرج معه وهذا يعني أنني لا أكرهه، أليس كذلك؟».

لم يعجبها تحوّل الحديث، لكن جين أمسكت بيدها تعتصرها بشكل عفوي: «لا تسكتيني ببرودتك. أنا أقول هذا لمصلحتك فقط. إذا كنت

تكنين له أيّ شعور خاص فأخبريه بذلك بحق الله، وهذا كل ما في الأمر. خذي عبرة من غلطتي أنا».

- غلطتك؟

- نعم، مع آدم.

واستندت جين إلى الخلف مقطبة: «لطالما اعتقدت حين كنت أصغر سناً، بأننا سنكون معاً دوماً. كنت أعلم حينذاك أنه يميل إليّ. لكن عندما دخلت الجامعة، لم يزعج نفسه بزيارتي أو بالكتابة إليّ أو بأيّ شيء... وشعرت بأنه... يتجاهلني».

- ألم يكن يدرس هو نفسه ويعمل ليلاً في الليل لكي يدفع نفقات تعليمه؟

كان كارتر قد أخبرها بذلك وبأن آدم كاد يصل إلى الحضيض، حينذاك.

أومأت جين وقد هبطت زاويتي فمها: «لم أفكر في هذا، حينذاك. أنا أعلم ذلك الآن. لكنني كنت أصغر سناً، و... لا أدري. على أيّ حال، فكرت في أن أحاول أن أثير غيرته... فينتبه».

- ألم ينجح هذا؟

هزت جين رأسها باكتئاب: «أصبح يخرج مع فتيات أخريات. وهكذا توترت الأمور أكثر وأصبحت فظيعة. لم يشأ أن يتحدث في المسألة».

- أنا واثقة من أن هذا غير صحيح. ربما انجرحت كرامته.

نظرت جين بعيداً بعينين حزينتين: «حتى في صبيحة يوم عرسي فكرت فيه. ولكن كان لدي ذلك الرجل الذي كان رأى في شخصي كل أحلامه... أو هذا ما ظننته حينذاك. على أيّ حال، كل هذا أصبح من الماضي».

قالت هذا بمرارة وهي تنتصب في جلستها، ثم أردفت «ما أريد أن

أقوله هو أنني لو قلت شيئاً لآدم، على الأقل لعرفت شعوره نحوي. أما الآن فسأبقى أتساءل عن ذلك. لكن الوقت فات. وأنا لا أريد أن يحدث لك الأمر نفسه، خصوصاً مع أخي، لأن أمره يهمني كثيراً، كما تعلمين».

فقالت ليبرتي برفق: «هذا هي المسألة إذن، يا جين. إنه أخوك، ما يجعل رؤيتك للأمور شخصية. لكنني سأتذكر دوماً قولك هذا، وهذا وعد مني».

– ستأتين حتماً إلى حفلة أمي وأبي، أليس كذلك؟ سيأتي آدم مع إحدى صديقاته الشبيهات بعارضات الأزياء، ومن المستحسن أن يجلس أحدهم معي في زاويتي. لم أتحدث قط عن هذا الأمر مع كارتر، مع أنه أفضل صديق لآدم، لكنني أظنه يشعر بأنني نلت ما أستحقه بالضبط.

– طبعاً لن يقول ذلك.

ورأت ليبرتي أن من التعقل ألاّ تذكر أن كارتر يعرف الوضع على حقيقته.

قالت جين ملحّة: «لكنك ستأتين؟ أرجوك يا ليبرتي».

فأومأت ليبرتي. لم تشأ أن تذهب وقد اعترفت في هذه اللحظة بأنها كانت ستعتذر في آخر لحظة متحججة بالعمل. ستقام الحفلة في فندق قريب من منزل والديّ كارتر، ما يحتّم قضاء الليل في الفندق، وهذا يسبب لها شعوراً بالتوجس. فكرة تعرفها إلى والديه ومجالسة أقاربه أرعبتها. لم تشأ أن تراه بصفة الابن المطيع... فقد كان هذا الأمر مريحاً ومغرياً للغاية. أرادت أن تبقيه في ذهنها في علبة صغيرة كُتب عليها(رجل يضيّع حياته في المجتمعات ومع النساء) فبهذا تنجح في الخلاص منه.

عندما عادت إلى العمل جلست إلى مكتبها تنظر إلى الأوراق أمامها من دون أن تراها. ذلك الحديث على الغداء أزعجها كثيراً. والأمر الوحيد الذي يفترض أن تُسرّ به... هو أن كارتر لم يخطىء مرة واحدة في الفترة

الأخيرة... كان يضايقها باستمرار.

أرادت أن تجد فيه شيئاً لا يعجبها. وتنهدت بضيق. لو طلب منها مشاركته الفراش لانتهت علاقتهما... لو ضغط عليها، أو كان صعباً مربكاً... لسهل عليها أن تبقيه بعيداً عنها، أو عن عقلها وهذا هو المهم. لكنه كامل دوماً... لا بل عظيم. وعظيم جداً جداً!

هل تحبه؟ لم يعد بإمكانها تجاهل هذا السؤال الذي بقي يحوم في ذهنها منذ حديثها مع جين. ورفعت عن الأوراق عينين كئيبتين... لا، إنها لا تحبه. لن تدع نفسها تقع في غرامه. أن تقع في غرام رجل اعترف بنفسه أنه من النوع الذي لا يرغب في الالتزام هو قمة الحماقة. وهي ليست حمقاء أبداً. إنهما يستمتعان بوقتهما وهذا كل ما في الأمر.

رفعت ذقنها بشكل عدواني. ستقام الحفلة هذا السبت. وبعد ثلاثة أيام، ستحضر الحفل حسب وعدها لجين. لكنها ما إن تعود إلى بيتها، حتى تضع حداً لهذه العلاقة الجنونية. إذا كانت صادقة، فعليها أن تعترف بأن كارتر دعا عدة مرات مؤخراً إلى وقف هذه العلاقة قبل أن تستفحل الأمور... وقطبّت جبينها. إنه بالغ المهارة، وتلك هي المشكلة... إنه خبير ويعرف الأزرار التي عليه أن يضغطها في اللحظات المناسبة.

وانخفض بصرها إلى الأوراق مرة أخرى وأدركت أن عليها أن تنهي عملها، لكن ذهنها ما زال يهدر بقوة. ستصبح... لا بل أصبحت بحاجة إلى كارتر في حياتها. تنفست بعمق وردّت شعرها إلى الخلف بيد مرتجفة، فهي لا تريد أن تحتاج أي شخص. وهذا ليس ما قررته لحياتها. سيرة أمها وعلاقاتها المضطربة على مرّ السنين أحزنتها وقززتها لكثرة ما حفلت بالخيوط المعقدة... وبخيبات الأمل والخيانة والقسوة. إنها تفهم عملها وبيتها ملكها... فلا مفاجآت قذرة ولا مشاهد تذلل ومحاولات إقناع ولا إحراج ولا عار.

كل ما تريده من الحياة ستحصل عليه بنفسها، على عكس من أمها.

فهي لا تريد أيّ ألاعيب. ما من شيء أو أحد يستحق ذلك.

– آسفة لإزعاجك يا آنسة فوكس، لكن السيد كاسل يتساءل عما إذا بإمكانه التحدث إليك قبل الاجتماع.

كان صوت سكرتيرتها هادئاً مليئاً بالاحترام وهو يصل إليها من خلال جهاز الاتصال بين المكتب الرئيسي ومكتبها الصغير.

– الآن؟

– نعم، يا آنسة فوكس. فهمت أنه بانتظارك.

– سأكون هناك حالاً.

جلست لحظة، شاحبة الوجه وشابكة أصابعها ثم وقفت، ومسحت عن وجهها كل تعبير وهي تجمع الأوراق التي أمامها استعداداً للذهاب إلى مكتب السيد كاسل.

ستوضح لكارتر أن علاقتهما القصيرة انتهت وذلك بعد الحفلة مباشرة. وستلغي موعدهما على العشاء الليلة، قائلة إنها مضطرة إلى التأخر في العمل. لقد أهملت عملها في الأسبوعين أو الثلاثة الماضية، ومن يطمح لمرتبة أعلى لا يفعل ذلك. ابتدأت عضلات عنقها تتوتر، فابتلعت ريقها بصعوبة، رافضة الاعتراف بأي كدر. لقد انتهى الأمر، لكنه، لم يبدأ قط.

حدّق كارتر إلى الهاتف وشتم بقوة تردد صداها في أنحاء المكتب. لقد تهربت منه مرتين. من يخدع من هنا؟ في الليلة الماضية، تقبّل حكايتها عن القضية المستعجلة رغم أنه لاحظ في صوتها غرابة، لكنه أدرك الليلة أن ذلك لم يكن تخيلات منه. هل ما زالت تريد مرافقته إلى الساحل لحضور الحفلة غداً؟ لقد وعدته بمرافقته لكن، ونظراً إلى سير الأمور، من يدري؟

وقف وسار نحو النافذة ينظر إلى الظلام في الخارج. كان قد حجز مائدة في مطعم آدم حوالى الساعة الثامنة، ومن الأفضل أن يتصل ويلغي الحجز.

شرع يطلب الرقم ثم عاد فوضع السماعة. تباً لذلك! إنه جائع. قد لا

يمكنه أن يرغم ليبرتي على مرافقته لكن ما من سبب يمنعه من الذهاب وحده. تباً له إذا كان سيجلس في بيته بينما معدته فارغة.

وبعد ساعة كان يغادر بيته متجهاً إلى المطعم بسرعة فائقة. وخرج آدم من المطبخ بعد أن قال للنادل، عابساً، أنه سيأكل وحده. نظر كارتر إلى صديقه الذي جلس على الكرسي الخالي أمامه وهو يسأله برقة: «أثمة مشكلة؟».

هز كارتر كتفيه: «ستتأخر في العمل».

– ثم؟

– ثم لا شيء. ستتأخر في العمل.

– لا بأس، لا بأس! لا تقطع رأسي.

نظر كارتر إلى هذا الصديق الذي كان له الأخ الذي لم يحصل عليه، وسأله بفظاظة: «أليس من المفروض أن تكون الآن في المطبخ تؤدي عملك؟».

مدّ آدم ساقيه الطويلتين وقال باسماً: «لقد استخدمت طاهياً جديداً فوضعي المادي يسمح بذلك الآن. ما رفع الضغط عني ويعني أن بإمكاني أن أستمتع بالعطلة الأسبوعية في مكان بعيد، كهذه العطلة الأسبوعية مثلاً. أفكر في قضاء ليلة السبت هناك. ما رأيك؟».

– هذا حسن.

– هيه.. لا تقلل من حماستي.

فسأله عابساً: «أتريد أن تسجّل طلبي؟»

هبّ آدم واقفاً: «بالتأكيد. كالعادة؟»

فحملق كارتر فيه: «لا. أريد فاصوليا خضراء. ثم سمك القد مع الليمون والبطاطا».

حدق آدم إليه: «لكنك لا تحب سمك القد وتقول دوماً إنه هزيل».

عندما قطب كارتر حاجبيه الأسودين سارع آدم يقول: «لا بأس. سمك القد».

ثم اختفى.

لعل انسحاب ليبرتي من هذه العلاقة، إذا كانت هذه نيتها فعلاً، أمر حسن، كما أخذ كارتر يحدث نفسه بكآبة، فهذه العلاقة فاشلة. لقدأدرك ذلك منذ رآها قبل أربعة أسابيع لكنه لم يعترف لنفسه بذلك حينذاك. لقد رغب فيها كما لم يرغب بامرأة من قبل، ومنذ عرفها لم يستطع أن ينام بشكل طبيعي.

تباً! لقد قلبت حياته رأساً على عقب، كما لم تفعل امرأة من قبل. أتراه سيجن؟ نعم. . . إنه مجنون بالرغبة، وهذا كل ما في الأمر. الرغبة الجسدية الصرفة!

وسأله صوت في أعماقه: لماذا لم تحقق رغباتك وتنتهي من ذلك؟.

لكن الأمر لم يكن بهذا الشكل، وهي لم تكن كذلك. لو أراد علاقة فقط، لوفت أيّ امرأة من النساء اللاتي يعرفهن بالغرض. ولكن ليبرتي. . . وتخلل شعره بأصابعه وهو يتأوه بصمت، محاولاً أن يجد طريقه من خلال المشاعر التي لم يشأ أن يواجهها لأيام. مع ليبرتي كان يريد المزيد. ورغم كل ما قاله، أراد المزيد. أراد علاقة حقيقية. . . جسدية وعقلية وعاطفية، كالعلاقة التي تجمع والديه، علاقة من النوع الذي يدوم طوال الحياة.

وجهه المتجهم جعل النادل يضع الطعام أمامه ويهرب من دون كلمة.

كان قد ظن أنهما يتقدمان في علاقتهما بشكل جيد وحقيقي، فماذا حدث؟ لماذا بردت من ناحيته؟

تناول طعامه والحلوى الممتازة من دون أن يستمتع بمذاقها. وعندما رأى آدم أن الوقت أصبح مناسباً ليعود ويجلس معه، كان كارتر قد توصّل

إلى قرار. حملق عابساً في آدم قائلاً: «لن أنقلب وأموت. اللعنة عليّ إذا فعلت هذا».

- لن تفعل؟

- وتباً لي إذا جعلتها تدمّر ما يمكن أن يتطوّر أكثر فأكثر. لا يهمني ما فعلته أمها لكن عليها أن ترى أنها مختلفة عنها. نحن مختلفان.

وأومأ آدم مشجعاً: «تماماً. هذا يبدو أفضل».

- إذا أرادت الحرب، فسأشنّ الحرب، ولكن سيكون هناك منتصران.

فقال آدم مذعناً: «أليس الأمر كذلك دوماً؟».

- أنت إذن تتفق معي في هذا؟

- كلياً.

- إنه منطق رجولي، كما ترى. ضع شيئاً من منطق الرجال فتنحل المشكلة.

ووقف وهو يضع بعض النقود في يد آدم، قائلاً: «وجبة رائعة وشكراً للحديث».

- هذا غير مهم.

وعندما خرج بقي آدم ينظر في أثره دقيقة كاملة.

٦ - إنها البداية

لم تعرف ليبرتي كيف سيكون حال كارتر عندما يأتي ليأخذها إلى الحفلة مساء الجمعة. ولم تكن متشوّقة إلى هذه الرحلة بالسيارة إلى «غريت يارموش» حيث يعيش والداه، لكنها عزّت نفسها بأن جين سترافقهما. فقد قرروا أن ينضموا، هم الثلاثة، إلى والدي كارتر ليتناولوا العشاء في الفندق الذي ستقام فيه الحفلة في اليوم التالي. أراد كارتر أن يوفّر لهم وقتاً كافياً لكي يرتاحوا قبل وصول الوالدين.

تركت ليبرتي العمل باكراً لتكون جاهزة قبل وصول كارتر في حدود الخامسة. وعندما سمعت رنين جرس الباب أخذت نفساً عميقاً لتهدىء خفقات قلبها، لكنها لم تنجح.

ما إن فتحت الباب حتى دخل من دون دعوة. وعندما أصبح في غرفة الجلوس استدار إليها وأخذها بين ذراعيه قبل أن تستطيع الاعتراض. عانقها طويلاً وبقوة فوجدت نفسها تستجيب لشوقه هذا بحنين مغاير تماماً لما كانت قد قررته. وبعد حين، أبعدها عنه قليلاً وهو يقول: «كم أنا بشوق إلى هذا! لم أعانقك منذ ثلاثة أيام. كيف حال العمل؟ أحسن؟».

حدّقت إلى وجهه الباسم وقد ارتجفت ساقاها قليلاً وشعرت بوهن في جسدها. ظنت أنه سيكون بارداً جافياً وربما غاضباً، لكنه يتصرف الآن وكأن الأمور لا تزال بينهما على حالها. هل صدق حقاً أعذارها عن كثرة العمل؟ أم أن هذا نوع من التمثيل؟ وعندما استمرت تحدّق إليه عاد يقول برقة: «العمل؟».

فقالت محاولة أن تتمالك نفسها: «ما زالت الفوضى تدبّ فيه».

عاد يحتضنها وهو يقول: «جين مسرورة لتمكنك من القدوم إلى الحفلة، وأنا أيضاً طبعاً».

احتضانه لها جعلاها تريد أن تلتصق به متوسلة إليه ألاّ يتركها أبداً. تشتت أفكارها وتملّكها الإضطراب، وشعرت بأنها تريد أن تبكي، فتمتمت بفتور: «كان الأمر صعباً، لكنني وعدت جين».

إنها تحبه، وعبثاً حاولت أن تقنع نفسها بخلاف ذلك. إنها تحبه على عكس كل ما حدثت نفسها به عندما عرفته، وكل المناقشات الذكية التي بذلت جهدها في إعدادها. لقد وقعت في حبه. حمقاء، حمقاء، حمقاء! ما كان عليها قط أن تتورط معه.

قال لها ببشاشة: «هل أنت جاهزة؟».

لم تستطع أن تمحو التعبير الذي علا وجهها بالسرعة اللازمة. لكن، إذا ما لاحظ عينيها الحزينتين، فلم يعلّق.

أومأت صامتة، غير واثقة من قدرتها على أن تتحدث حالياً بشكل طبيعي، فاكتفت بأن أشارت إلى حقيبتها قرب الباب ومعطفها فوقها.

وفي السيارة، ساعد استقبال جين الحار لها والحديث المنعش على إيجاد جوّ طبيعي. لكن ليبرتي كانت واعية بشكل مؤلم لكل حركة خفيفة صدرت عن كارتر بجانبها. كان يرتدي بنطلوناً أسود أنيقاً وقميصاً رمادياً مفتوحاً عند العنق، بينما سترته وربطة عنقه ملقاتان على المقعد الخلفي. وكان قد ثنى كمي قميصه قبل أن يبدأ الرحلة فبدا الشعر الأسود على ذراعيه وهو يمسك بعجلة القيادة. لم تستطع ليبرتي أن تمحو صورته من خيالها رغم محاولاتها تركيز النظر على المناظر الطبيعية التي تتعاقب.

أتراه يعلم كم تريده؟ هل لديه فكرة عن عدد المرات التي كانت تستلقي فيها في سريرها وقد جافاها النوم، وهي تفكر فيه حتى ينهكها التعب

وتغفو؟ إنها ترجو أن ألاّ يعلم ذلك. . . وهي لا تريده أن يعلم. تسارعت دقات قلبها، وتصاعد الدم بارتفاع سريع إلى أذنيها. كيف ستنتهي هذه العطلة الأسبوعية؟ وكيف ستنتهي حياتها بأكملها؟

أخذت المرسيدس تطوي الأميال إلى الساحل بسرعة وراحة حالما خرجت من لندن، فوصلوا إلى الفندق قبل ثلث ساعة من موعد وصول والديّ كارتر في الثامنة والنصف.

خرج المدير بنفسه ليرافقهم إلى غرفهم ومعه غلام يرتدي بذلة رسمية حمل حقيبتي المرأتين في حين أصرّ كارتر على أن يحمل حقيبته بنفسه. عندما سمعت ليبرتي المدير يتحدث إلى كارتر بلهجة فيها شيء من التذلل والخنوع، تساءلت عما إذا كان كارتر يحب هذا النوع من الأمور.

وخطر لها فجأة أنها لا تعلم، رغم الأسابيع الأخيرة التي أمضتها برفقته. ما الذي تعرفه عنه في الحقيقة؟ لا شيء سوى الصورة التي أظهرها لها. هذا هو الواقع باختصار. قد تكون صورته صادقة وحقيقية طبعاً لكن لا سبيل إلى التأكد من ذلك. لكن، ومن ناحية أخرى، يفاجأ أحياناً الرجال والنساء الذين عرفوا شركاءهم في الحياة لسنوات، بصفات كريهة لديهم.

إن إنهاء هذه العلاقة بعد العطلة الأسبوعية تصرّف صائب. لقد رأت الضوء التحذيري يتحوّل من البرتقالي إلى الأحمر، ما يشير إلى خطر واضح. إذا لم تنسحب الآن، فستغرق في مستنقع هذه العلاقة بحيث تعجز عن تكوين فكرة واضحة عن الوضع بأكمله، ولن يبقى أمل في إنقاذ قلبها حين تسوء الأمور. وتجاهلت حقيقة أن الأوان قد فات.

انتبه كارتر إلى كل تعبير خاطف ارتسم على وجه ليبرتي. وشعر بتجدد قراره الذي اتخذه ليلة أمس في مطعم آدم، بالرغم من شعوره بقبضة تعتصر قلبه. ذكرى تجاوبها معه في بيتها قبل انطلاقهما في الرحلة وإدراكه بأنهما يحملان الشعور نفسه، هذا الشعور الذي نما بعنف وعمق في الأسابيع

الماضية، أقنعاه بأن بإمكانه أن يجعلها تتعقل. أما أن يتخلى عما يجمعهما الآن، فهذا أمر مستحيل وسيحطم حياتيهما.

هذا الإحساس غير المألوف الذي كان أكثر من مجرد رغبة جسدية أفزعه هو أيضاً، ما جعله يفكر عابساً. إنها ليست المرأة الوحيدة في العالم، لكن التفكير في أن يعيش من دونها زاد في فزعه.

وقف المصعد عند الطابق الثاني، ثم تقدم كارتر ليفتح في منتصف الممر المعطر باباً وهو يقول: «غرفة السيدتين المزدوجة».

قال هذا بابتسامة عريضة وكأنه من بنى وأثث الغرف. وضع الغلام حقيبتيهما في الغرفة، ثم تسلل مبتعداً بهدوء ولكن ليس قبل أن تلاحظ ليبرتي أنّ كارتر دس في يده ورقة نقد جعلته يحني رأسه شاكراً بابتسامة عريضة. كانت الغرفة رائعة، وبدا السريران وكأنهما سريران مزدوجان صغيران.

قال المدير: «تحية من الفندق طبق الفاكهة هذا والشوكولا وزجاجة العصير، وهذه الزنابق التي تعطر الجوّ طبعاً».

وخطر لليبرتي بجفاء أن كارتر أنفق من دون شك ثروة صغيرة في هذا الفندق ليحظى بمعاملة من هذا النوع.

- والآن، إذا كنت مستعداً يا سيدي، فسأريك غرفتك.

- سأراكما في ردهة الاستقبال بعد ربع ساعة.

قال كارتر هذا للمرأتين وهو يلامس خد ليبرتي بيده.

عندما أقفل الباب خلف الرجلين لم يكن الوقت يسمح للمرأتين سوى بفتح حقيبتيهما، وتغيير ملابسهما وإصلاح زينتهما وتسريحتهما قبل أن تنزلا إلى الطابق الأسفل.

ارتدت ليبرتي أحد ثوبي السهرة اللذين أحضرتهما معها. أما الثوب الثاني الذي دفعت معظم ما لديها من مال ثمناً له في الأسبوع الماضي، فقد

تركته جانباً لترتديه في اليوم التالي في الحفلة. كانت تعلم أن هذا الثوب الفضي اللون، يناسب لون بشرتها كما أنه يريحها، وهذا أمر هام نظراً لتوترها كلما فكرت في أنها ستتعرف إلى والدي كارتر.

لم يكن عليها أن تقلق، إذ أدركت من أول لحظة أنها ستنسجم معهما تماماً. كان بول بليك يشبه ابنه كارتر بطوله ووسامته الخشنة ومظهره الاستبدادي. بدا شعره الخشن الأبيض أنيق المظهر، أما ماري، زوجته، فقد كانت نحيلة وهي ما زالت جميلة تماماً، رغم أن سنوات الكفاح والكد قبل أن يخرجهم كارتر من بيتهما الفقيرة، تركت أثرها على شكل خطوط متشعبة حول فمها وعينيها.

قال لها بول بليك وفيما كارتر يقدمهم إلى بعضهم البعض: «إذن، أنت ليبرتي فوكس، يمكنني أن أرى ما الذي سلب عقل كارتر».

- كفى يا بول، فأنت تحرجها.

قالت ماري هذا وهي تتجاهل يد ليبرتي الممدودة لمصافحتها حيث وقفت وقبّلتها على الخدين مردفة: «أنت جميلة جداً يا عزيزتي، وأنا مسرورة جداً لتمكنك من حضور الحفلة غداً، رغم أن مقابلتك كل هذه الجموع مرة واحدة قد تكون مربكة قليلاً».

كانت ليبرتي على وشك أن تكذب بدافع التهذيب وتقول إنها متشوّقة لحضور الحفلة، لكنها وجدت نفسها تقول لها بثقة: «في الحقيقة، أكاد أموت رعباً».

- لا تخافي، كلنا سنكون هناك لنرعاك. وإذا اقترب منك العم هاري فسيسد عليه بول أو كارتر الطريق.

ضحك الجميع عندما سألت ليبرتي كارتر: «العم هاري؟ من هو العم هاري؟».

قال كارتر باسماً: «إنه في الثمانين لكنه ما زال يتخيّل نفسه زير

نساء».

فقالت جين: «لقد تزوج ست مرات، وزوجته الحالية مجرد فتاة نحيلة في الأربعين، وقد أنجبت طفلاً منذ أشهر».

وغضّنت أنفها كعادتها. فاتسعت عينا ليبرتي: «أحقاً؟ وهو في الثمانين؟».

. قال كارتر بجفاء: «وإذا كانت الطفلة طفلته حقاً، كما تدعي هي، فهذا أمر آخر. لكنه يحب أن يعتقد ذلك».

بدت الصدمة على وجه الأم: «كارتر. كاثرين طفلة هاري طبعاً، فهي نسخة عنه».

- أمي، كاثرين صغيرة وممتلئة الجسم وصلعاء. أو شبه صلعاء».

فتحت أمه فمها لتحتجّ فيما تابع: «إنها تبدو مثله حالياً، فهو يعيش طفولته الثانية كما نعلم».

فقالت الأم ضاحكة مع الآخرين: «يا لك من رجل فظيع! يا لهاري المسكين».

أحاط بهم جميعاً جوّ دافىء. وشعرت ليبرتي وكأنها طفل ينظر إلى واجهة متجر مليء بكل هدايا العالم لكنه غير قادر على الدخول إليه. كانت قد لاحظت هذا من قبل بين كارتر وأخته جين. إنما، وبعد حضور والديه، تعاظم لديها هذا الشعور وفكرت باكتئاب بأنهم محظوظون للغاية.

- هوذا آدم.

صوت كارتر عكس أمراً واقعاً فيما استدار رأس جين بسرعة نحو الباب حيث وقف آدم، ورأت ليبرتي عيني كارتر على وجه أخته.

قالت جين باضطراب عندما اتجه الرجل الطويل الوسيم المظهر نحوهم: «آدم؟ لم تخبرني أنه قادم الليلة».

فقال كارتر بعدم اكتراث: «ألم أخبرك؟ لا بد أنني نسيت. لقد ذكر لي

أنه ينوي الاستراحة من العمل ليلة غد فاتصلت به هاتفياً هذا الصباح ودعوته للانضمام إلينا. لا بأس في هذا، أليس كذلك؟».

واستدار يخاطب والديه: «إذا ما انضم إلينا الليلة أيضاً؟».

فقالت ماري مبدية السرور: «طبعاً. آدم من أفراد الأسرة. لقد أمضى مع أخته من الوقت في بيتنا أكثر مما أمضياه في بيتهما عندما كانا صغيرين».

وأضافت تقول لليبرتي قبل وصول آدم: «يا للفتاة المسكينة».

ومع وجود آدم، أمضت ليبرتي السهرة بشكل أحسن بكثير مما توقّعت. ربما لم تكن السهرة حسنة جداً، كما فكرت بشعور بالذنب وقد قارب العشاء على الانتهاء. فبما أن والدي كارتر كانا يحاولان أن يتجاهلا شعور ابنتهما بالارتباك والإحباط فقد استمرا في الحديث يساعدهما في ذلك، بقدرة بالغة، كارتر الذي أجاد في الإحتفاء بالجميع.

كانت هناك حلبة رقص بين الموائد، وعندما تعالت الموسيقى قفز كارتر ومد يده إليها يجذبها: «هيا بنا، عسى أن أهضم بعض عشائي».

قال ذلك بلهجة لا تحتمل الرفض، فلم تستطع أن تجادل، وتركته يقودها متمتمة: «امتلاء معدتي بالطعام يمنعني من الرقص».

– كلام فارغ.

أخذها بين ذراعيه، وعندما أصبحا في حلبة الرقص نظر في عينيها. كلماته التالية جعلتها تتعثر في خطواتها وتدوس على قدمه إذ سألها برقة: «هل أنت خائفة مني؟».

– لا تكن سخيفاً. لست خائفة طبعاً.

وحدقت إليه، مدركة أنها محمّرة الوجه لكن من دون أن تستطيع شيئاً حيال ذلك.

سألها بجد بالغ: «وهل هذا أمر سخيف؟».

– نعم. إنه كذلك.

كان كذلك، فعلاً، بشكل ما. لم يكن كارتر هو الذي تخافه بقدر ما كانت تخاف نفسها ومشاعرها نحو هذا الرجل الغريب الشخصية.

– لماذا تنظرين إليّ إذن بعيني أرنب مذعورة وترتجفين عندما ألمسك؟

فقالت بفتور: «أنا لا أفعل ذلك».

وخانها صوتها فارتجف رجفة صغيرة سمعتها بنفسها ولا بد أنه سمعها هو أيضاً.

– تعلمين أن علاقتنا تطوّرت سريعاً في الأسابيع الماضية. هل هذا ما دعاك إلى التراجع؟

إذن فهو يعلم! وفكرت في أن الهجوم هو أفضل وسائل الدفاع، فقالت بمرارة: «إذا كان كلامك هذا لتجعلني أمضي ليلة في غرفتك، فانسَ الأمر».

– لا شيء أحبه أكثر من أن أحصل عليك في سريري.

وشدّها إليه بإحكام، فهمست بتوتر: «لا تفعل هذا، الناس يراقبوننا».

تجاهل كلامها وتابع: «لكنني لا أطالبك بشيء في هذه العطلة الأسبوعية فأنت غير مستعدة لي. أنا لا أريد جسدك. أنا أريدك بشكل كامل. هل تفهمينني؟ القلب والروح والعقل والجسد».

كان هذا تصريحاً ذا هدف، ولم تستطع أن تدعي أنها لا تفهم ماذا يقول.

كانت ذراعه حول خصرها فيما رفع الذراع الأخرى ليعبث بشعرها الحريري وارتجفت.

– لا أنوي أن أدعك تتراجعين يا ليبرتي، أبداً.

كان في صوته تهديد فولاذي وهو يتمتم وفمه قرب أذنيها: «لن أسمح

لك بأن ترمينا، نحن الاثنين، في الجحيم لأنك خائفة من الالتزام بي. طريقة حياة أمك لا علاقة لها بنا وعليك أن تفهمي ذلك».

كلامه عن أمها جعلها تتصلّب، ثم قالت وهي ترتجف: «أنت لا تعلم شيئاً عن ذلك. لا شيء».

- لأنك لا تتحدثين عن ذلك.

ودار بها في الحلبة حتى خرجا من باب جانبي أدى بهما إلى غرفة صغيرة تُستعمل على الأرجح للتحضير لوليمة العرس في المطعم الرئيسي.

وقف وهي بين ذراعيه وقال: «أمرك يهمني جداً، ويجب أن تفهمي هذا. تباً! أيّ شخص يمكنه أن يرى هذا».

فقالت تذكره بيأس: «لكنك قلت إنك لا تتطلّع إلى الكثير. أنت قلت ذلك».

- وكنت أعني ذلك حينذاك.

- وما الذي تغيّر؟

- أنا، وأعترف بذلك. لكنني قلت أيضاً إنني أحب الصدق والحقيقة في العلاقة. هل نسيت؟ وهكذا... فكرت في أن من الأفضل أن أكون صريحاً معك. أنا أريدك يا ليبرتي ولكن ليس لأسبوع أو شهر أو أي مدة من الزمن. أنت لست من ذلك النوع من النساء.

لم تعرف ما ينبغي أن تقول، فقالت أول ما تبادر إلى ذهنها: «أي نوع من النساء أنا، إذن؟».

وتمنت لو لم تسأله.

- من النوع الذي يجعل الرجل يظن أنّ عبارة (إلى الأبد) ليست شيئاً غير قابل للتصديق.

جمدت ليبرتي بين ذراعيه: «هذا ليس صواباً، يا كارتر. لقد أخبرتك منذ البداية عن وضعي».

- كان الأمر مختلفاً حينذاك.

كان كذلك حقاً، تباً لذلك! لم يكونا يعرفان بعضهما البعض. في الأسابيع الماضية تحدثا معاً، وضحكا معاً واشتركا في ما يجعل الرفيقين رفيقين أكثر مما يحدث بين اثنين في عشر سنوات. إنه يعلم ذلك، وهي تعلم ذلك أيضاً ولهذا السبب هي خائفة حتى الموت. هذا الحب ليس من جانب واحد، فهي تريده بقدر ما يريدها، وهي تحبه كما يحبها. ولو لم تكن كذلك لما كانا الآن يتبادلان هذا الحديث.

قالت بتبلّد: «أنا لم أشجعك على حبي».

فردّ بهدوء: «أنا لم أقل إنك فعلت ذلك».

- أنا... لست من النوع الذي تريدني أن أكون.

فقال متحدياً وقد ضاقت عيناه: «قولي إنك لا تحبينني، قولي ذلك، وبصدق، فأنسى كل شيء في الحال. لكنني سأعرف إذا كذبت».

كان قلبها يخفق، وشعرت بغصة آلمتها. كيف يمكنها أن تكذب عليه؟

- أنا أعرف أن أمك تركتك، وأباك. لكن أباك بقي معك، أليس كذلك؟ انظري إليه وليس إليها.

إنه لا يفهم، ولكن كيف يمكنه ذلك؟ فهي نفسها لا تفهم شعورها.

وقال برقة بالغة: «أنت لم تقوليها».

- أقول ماذا؟

كانت تريد كسب الوقت، وقد دار رأسها.

- ... أنك لا تحبينني.

كان جسدها متصلباً وشعر بها كلوح خشب بين ذراعيه. لكن، عليهما أن يتفاهما. كان يشتم عطرها بنهم، وبدا له مستحيلاً أن تهجره على الإطلاق. هذا مستحيل، لا بد أن يكون مستحيلاً.

ازدردت ريقها وأحنت رأسها: «القضية ليست قضية حب. ظننت

أمي، في البداية، أنها تحب أبي؛ وبعدئذ، وقعت في غرام شخص آخر، ثم شخص آخر. . .».

- أنت لست أمك.

وشعر برغبة مفاجئة في أن يهزها. لكن دم أمها يجري في عروقها، كما يجري دم أبيها. . الخوف المدفون في عقلها الباطن، شق طريقه إلى الضوء. وأخذت نفساً مرتجفاً لكنها لم تستطع الكلام.

- هل سمعتني يا ليبرتي؟ أنت لست مثلها.

- وما أدراك؟

- أنا أعرف.

ورفعت بصرها إليه، محاولة ألاّ تنهار وتبكي: «ما الذي يجعلك تدري؟».

- لأنني أعرفك.

- كارتر. منذ خمسة أسابيع لم تكن تعلم بوجودي في هذه الحياة، فكيف تعرفني؟

حدق إليها بعينين ثابتتين هادئتين: «لأن ما بيننا لا يتوقّف على الوقت. أنت نصفي الآخر. وأنا أشعر بذلك في عظامي ودمي وعقلي وقلبي. لقد عرفتك ما إن رأيتك، رغم أنني منعت نفسي من تصديق ذلك حينذاك. قلت لنفسي إنّ هذه العلاقة ستكون علاقة أخرى ممتعة غير جادة، لكنها مثيرة بقدر دوامها. كنت أخدع نفسي. لقد عرفت النساء منذ كنت في السابعة عشرة، وكانت المشاعر تخدعني، لكنني لم أعد أخدع الآن، فأنا أميّز الشيء الحقيقي حالما أراه».

الشيء الحقيقي؟ هل يتحدث عن الزواج هنا؟ وبدا الفزع على وجهها. وبعد لحظة طويلة تنهد قائلاً من دون أن يبتسم: «ما الذي سأفعله بك؟ اسمعي، أتعترفين بأن ثمة شيء بيننا؟ شيئاً جيداً؟ شيئاً جيداً جداً؟».

أومأت، فمن العبث أن تنكر ذلك.

- وأنه شيء لم تشعري به نحو أي شخص آخر؟

أومأت مرة أخرى فشعر ببهجة بالغة قبل أن يقول: «وهذا يخيفك حتى الموت؟ إلى حد تريدين معه أن تهربي؟».

نظرت بعيداً وقلبها يخفق بعنف.

- لقد اتضحت الأمور الآن. . . شعورك وشعوري. نحن نعرف حقيقة الموقف الآن. وبالرغم من ذلك، أو ربما بسبب ذلك، لا أرى سبباً يمنع استمرار علاقتنا. وإذا أزعجك ذلك يوماً ما، فسأفهم. . . لا يمكنني أن أدعي أنني أقرأ ما في ذهنك، ولكن بإمكاني تقبل حصول ذلك وكأنه حدث فجأة. إنّ شعوري مماثل لشعورك. تصرّفي من دون تخطيط.

- أحقاً؟

- نعم. هذا غريب، فأنت لست الوحيدة التي يُسمح لها بأن تشعر بأن محور عالمها اختلف فجأة. وهكذا ستستمر علاقتنا، أليس كذلك؟

وقبل أن تجيب أخذ وجهها بين يديه وعانقها. كان عناقاً طويلاً حلواً. . . عناقاً أثبت كل ما قاله لها عن أنه يحبها. وعندما انتهى العناق، راحت ترتجف، لكنها أرغمت نفسها على القول: «ماذا لو أن الزمن لم يحقق لك ما تريد كما تظن؟ ماذا لو ساءت الأمور كلما ازددنا معرفة ببعضنا البعض؟ لا. . . لا أريدك أن تتألم».

يتألم؟ هذا سيقتله. وقال ضاحكاً: «أنا ولد كبير، فلا تخافي من هذه الناحية».

كانت مكافأته أن رفعت يدها ولامست خده بحنان فاضت معه مشاعره.

- الأفضل أن نعود إلى الآخرين.

قال هذا وهو يقبل يدها ويضع ذراعه حول خصرها ليقودها إلى حلبة الرقص حيث طالعهما مشهد مبهج لجين بين ذراعي آدم الذي راح يدور بها في أنحاء الحلبة.

عندما وصلا إلى مائدتهما، وقبل أن يجلسا، قالت لهما ماري وهي تشير إلى باحة الرقص برأسها: «ما رأيكما؟ يبدو عليهما الانسجام التام؟».

- إنها البداية.

قال كارتر هذا وهو ينظر إلى ليبرتي فشعرت بأنه يعنيها هي بذلك وليس الاثنين في باحة الرقص.

نظرت ماري إلى ليبرتي عاقدة حاجبيها: «أرجو أن تطلعه جين على شعورها نحوه، لقد ضيعا الكثير من الوقت سدى. مسكين آدم فهو لا يعرف أهميته عندها».

قال لها بول بلهجة التنبيه: «الأمر يعود إليهما الآن، فهما راشدان وليسا ولدين صغيرين. ألن تعلقي يا ماري؟».

فألقت برأسها إلى الخلف وردّت باستياء: «لا أحلم بذلك».

عندئذ، مد يده يمسك بيدها يعتصرها، فأضافت: «أرجو فقط أن تقول جين شيئاً».

فتأوه بول وهو ينظر إلى كارتر الذي ابتسم متعاطفاً.

وما إن عاد آدم وجين إلى المائدة، حتى قال والد كارتر: «حسناً، سنترككم الآن لنعود إلى البيت، إذا لم يكن لديكم مانع، فغداً سيكون يوماً شاقاً ونحن لم نعد فتيّين».

عندما خرج الزوجان، أعلنت جين رغبتها في الخلود إلى النوم وسرعان ما وافقتها ليبرتي الرأي. ويبدو أن الرجلين يشتركان هما أيضاً في غرفة مزدوجة ليس بعيداً عن غرفتهما، إذ صعد الأربعة في المصعد معاً، واختفى آدم وجين في ناحية ما، فيما وقف كارتر وليبرتي أمام غرفة الفتاتين.

- إنهما لبقان، أليس كذلك؟

ومنحها ابتسامة عريضة فلم تتمالك نفسها من الابتسام وهي تقول: «أنت جعلت هذا واضحاً تماماً».

- أريد أن أحييك تحية المساء على انفراد؟ هذا صحيح.

وأحاط خصرها بذراعيه وشدّها إليه، ثم أحنى رأسه وعانقها عناقاً نهماً، فيما أحاطت هي عنقه بذراعيها.

خفقات قلبه المتسارعة كانت تشهد على ثورة مشاعره. وعندما تركها أخيراً، كان يتنفس بصعوبة.

قال وهو يهزّ رأسه: «لا أستطيع أن أصدق ما تفعلينه بي. أدخلي إلى الغرفة بسرعة قبل أن أنسى نواياي الحسنة وكلها وأحملك إلى مكان ما».

ابتسمت وابتعدت عن ذراعيه فيما أفزعها عدم قدرتها على تمالك نفسها. أي نوع من الرسائل كانت تُرسل إليه؟ ليس عليه إلا أن يلمسها لتذوب شوقاً إليه. لكن، ما أدراها بأن كل هذا ليس سوى جاذبية جسدية عنيفة بالنسبة إليه كما هي بالنسبة إليها؟ شعور يحرق نفسه بنفسه لينطفئ في النهاية تاركاً الرماد خلفه؟

- كفى تفكيراً.

لم تكن تدري أن وجهها يكشف أفكارها، لكن عندما نبهها من شرودها، نظرت إليه بعينين ملتهبتين، فقال: «أنا أعني ما أقوله، يا ليبرتي، فأنت متعبة. لا تفكري في أي شيء الليلة. اذهبي واغتسلي ثم استلقي في سريرك. يمكنك أن تحلمي بي ما دامت الاحلام سعيدة، مفهوم؟».

ضحكت بتوتر: «يبدو وكأنك تنفر مني».

فرفع يده احتجاجاً: «بل هو المنطق، يا حبيبتي».

حبيبته! لم يناداها بهذه الصفة قط من قبل. ووجدت نفسها تحبها، فقالت له بنعومة: «تصبح على خير، يا كارتر».

- تصبحين على خير.

ولم يتحرك من مكانه بل استند إلى الجدار شابكاً ذراعيه القويتين على صدره، وراح ينظر إليها بتأمل حتى أغلقت باب غرفتها.

٧ -الخطوة الأولى

لم تتوقع ليبرتي أن تنام ما إن استلقت في السرير بعد حمام ساخن. ودهشت وهي ترى أنها، بعد أن ألقت تحية المساء على جين، لم تعد تذكر شيئاً حتى الصباح.

استيقظت فرأت أن جين سبقتها إلى الحمام، وقد عادت إلى الغرفة بعد أن لفت منشفة حول شعرها وأخرى حول جسدها. ابتسمت لها وقالت آسفة: «أردت أن أفعل شيئاً لأخفي آثار ليلة من دون نوم تقريباً. هل الظلال تحت عيني تبدو واضحة جداً؟».

وألقت بنفسها على حافة سرير ليبرتي فيما حدّقت هذه الأخيرة إلى الوجه الجميل وابتسمت مجيبة: «تبدين رائعة. صدقيني!».

فقالت جين متفجعة: «ما إن استلقيت على الفراش حتى استغرقت في النوم، وإذا بي أستيقظ بعد ساعة ليجافيني النوم حتى الصباح. ليبرتي، هل تظنين أن حضور آدم إلى الحفلة وحده من دون صديقة يحمل معنى خاصاً؟».

لا بد أنّ هذين الاثنين أكثر الناس إصابة بالعمى في التاريخ. وهزت ليبرتي رأسها، وقررت أن تتكلم بصراحة: «جين، إنه مجنون بك، يمكن للأعمى أن يرى ذلك. لماذا تظنين أنه لا يبقى مع فتاة أكثر من دقيقتين؟ لكن بعد كل ما حدث، عليك أن تشجعيه، فهو ليس من بدأ بإفساد الأمور وبالخروج مع فتيات أخريات ليتزوج في النهاية».

- لكن، ماذا لو قلت أو فعلت شيئاً وإذا به لا يريد أن يفهم؟ ماذا

سيكون موقفي؟

- لن يكون وضعك أسوأ مما هو عليه الآن. كما أنك مدينة له بالخطوة الأولى.

- أحقاً ترين هذا؟

فقالت ليبرتي بحزم: «نعم، أرى هذا».

ناحت جين: «أنا مجنونة به يا ليبرتي، وسأموت حتماً إذا أدار لي ظهره».

- لن تفعلي وهو لن يفعل ذلك. والآن، دعي كل هذا وتأنقي ريثما أدخل الحمام، ثم ننزل لتناول الفطور. وبالله عليك، لا تضيعي النهار في التساؤل عما عليك أن تقومي به. افعلي شيئاً في الحال لكي تتمكني من الاستمتاع بالحفلة.

- أنت تظنين حقاً أنه يميل إليّ، أليس كذلك؟

- لا. لا أظنه يميل إليك يا جين، بل أظنه يحبك، صدقيني.

رفعت جين رأسها: «حسناً، سأقوم بالخطوة الأولى. سأقوم بذلك على الفطور. وإذا فشل ذلك، حسناً، فلن ألوم سوى نفسي لأننا خسرنا ما كان بيننا في الماضي. إذا لم أتشجّع، فلن أعرف أبداً».

- لن يفشل أبداً.

وفي الحمام، وقفت ليبرتي دقائق عدة تحت المياه الدافئة تحاول أن تهدىء خفقات قلبها التي تسارعت لفكرة رؤية كارتر مرة أخرى بعد حديثهما أمس. تساءلت بأسى لما تجد سهولة في إعطاء الآخرين نصائح في حياتهم العاطفية؟ بدت كعجوز حكيمة وهي تتحدث إلى جين ومع ذلك فهي آخر من يحق له في العالم الحديث عن الحب والالتزام. أخذت تغسل شعرها بعنف وكأنها تزيل عنه، مع رغوة الصابون، كل الشكوك وعدم الثقة.

قال كارتر إنه لم يشعر في حياته بما يشعر به نحوها، وأنه تغيّر... ولكن

كيف تتأكد من ذلك؟ وقد اعترف بأنه لم يحدث قط أن انتظر امرأة لكي يأخذها إلى سريره، ولعل هذا هو التحدي الذي مثّله له، هذا هو السبب. الانتظار، واغراء المطاردة يصوّران له الكثير، والحل واضح. لكن، لا يمكنها أن تمنحه نفسها ثم ترى.

أنهت الحمام وأخذت تجفف جسمها. إنها لا تعرف وحسب ما عليها أن تفعل. ورفعت بصرها إلى المرآة. لم تجد جواباً في عيني هذه المرأة الحزينة التي تبادلها النظر، لكنها لم تتوقع ذلك على أيّ حال.

وعادت إلى ذهنها كلمات كارتر الليلة الماضية «تصرّفي من دون تخطيط»، فأومأت مقتنعة بها. إنها الجواب الوحيد لهذا المأزق الذي وقعت فيه. لا يمكنها الآن أن تتصور الحياة من دونه، لكنها لا تستطيع أيضاً أن تتصور مشهداً يدوم إلى الأبد. لقد اختلطت عليها الأمور.

ارتدت بسرعة بنطلوناً أنيقاً وبلوزة من الكشمير الأبيض تصل إلى الخصر. بالرغم من أن زينتها وتجفيف شعرها استغرق بعض الوقت اضطرت لأن تنتظر بعض الوقت لكي تنتهي جين من وضع التبرّج وتطمئن إلى مظهرها.

كان توتر جين معدياً، ووجدت ليبرتي وهما يهبطان في المصعد، أنها تعتصر يديها. وبعد أن ألقت نظرة على نفسها في مرآة المصعد، أرغمت نفسها على الاسترخاء، وأخذت نفساً عميقاً مهدئاً. ما يحصل بين جين وآدم، وبينها وبين كارتر، سيتركها منهكة وعصبية مع انتهاء هذه العطلة الأسبوعية. لذا، عليها أن تتمالك نفسها.

عندما دخلتا غرفة الطعام، كان الرجلان موجودين فرفع كارتر يده يشير إليهما. كان أمام كل منهما كأس عصير برتقال، وبدا أنهما لم يطلبا الفطور بعد. وبدا كارتر رائعاً ووسيماً ما جعل ليبرتي تكبح رغبتها في الارتماء بين ذراعيه.

– صباح الخير.

نهض الرجلان عند دخولهما. وفيما ابتسم آدم لجين، انحنى كارتر وعانق ليبرتي عناقاً خفيفاً ما كان عليه، في الواقع، أن يشعل النار في كيانها، كما أخذت ليبرتي تفكر بعجز وهي تأخذ مقعدها.

– هل نمت جيداً؟

بدا واضحاً أن سؤال آدم مجرد لباقة اجتماعية، لكن جواب جين كان بعيداً عن ذلك إذ قالت بهدوء ولكن بوضوح تام: «لا. لقد بقيت مستيقظة طوال الليل أتساءل إن كان لدي الشجاعة الكافية لكي أعترف لك بأني كنت فتاة مغفلة حمقاء في الماضي، وأطلب منك فرصة أخرى».

خيّم صمت مطبق على الطاولة وجدت ليبرتي مكانها وعيناها على أدوات المائدة أمامها. أما كارتر الذي كان قد مدّ يده ليرفع كأس العصير، فتردد برهة قبل أن تستقر يده على الكأس وتبقى عليها من دون حراك.

لا بد أن آدم بقي يحدّق إليها مصعوقاً لأن صوتها كان رقيقاً للغاية وهي تقول: «هل من الممكن أن تصفح عني؟ أنا أعلم أن عليك أن تفكر في الأمر، ولكن...»

– لقد فكرت. فلنخرج من هنا. هل لديك مانع يا كارتر...؟

كان صوت آدم منخفضاً أبح، فرفعت ليبرتي رأسها تنظر إليه، وما رأته على وجهه جعلها تبتلع ريقها بصعوبة. قال كارتر ضاحكاً: «اذهبا».

كانت جين ترتجف وقد تورد وجهها، وعندما أمسك آدم بيدها وخرجا من المطعم، قال كارتر بطريقة الأخوة: «الحمد لله. لقد جننتني كما جننته، أرجو أن ينتقم لي منها، وألاّ يتساهل معها».

– أنت لا تعني ذلك. وهو سيتساهل معها لأنه يحبها كما تعلم.

وابتسمت ليبرتي له. شجاعة جين المفاجئة حيّرتها وملأتها إعجاباً في الوقت نفسه.

ابتسم لها لكنه قال بجفاء: «هكذا إذن! يسرني أنك لاحظت ذلك،

أتعلمين، لعلنا أخطأنا في حساباتنا بالنسبة إلى نسبة الناجحين في زواجهم، منذ أربعة أسابيع. . . إذ قد ينجح عدد أكبر مما قدرناه. إنها فكرة، أليس كذلك؟».

كان عليها أن تعلم أنه لن يفوّت أي فرصة ليثبت نظريته. وفيما هي تنظر إليه، كل ما استطاعت أن تفكر فيه هو كم تحبه وكم أن جين وآدم محظوظان فبعد أن حصلا على نصيبهما من التعاسة والألم حان الوقت لينتقلا إلى السعادة. إنها واثقة من ذلك، أما بالنسبة إليها وإلى كارتر. . .

– على أيّ حال، أكره العودة بالأمور إلى الواقع لكن معدتي ابتدأت تعتقد أن حلقي قُطع من دون شك. يمكننا، إذا شئت، أن نطلب فطورنا الآن، فلدي إحساس بأننا لن نرى آدم وجين قبل الحفلة الليلة.

وجدت ليبرتي أنها تستمتع جداً بطعامها، ولعل السبب في ذلك هو هواء البحر. وقد أكل كارتر ضعف ما أكلته، بالإضافة إلى «التوست» والمربى وإبريق القهوة. نظرت إليه برهبة بعد أن شبع أخيراً واستند إلى الخلف: «هل تتناول مثل هذا الفطور الدسم دوماً؟».

فقال بلطف: «أنا ولد كبير، أم لعلك لم تلاحظي؟».

تجاهلت اللمعان في عينيه وقالت: «ألا تريد أن ترى تحضيرات الحفلة أم أي شيء آخر؟ يمكنني أن أشغل نفسي بسهولة فلا تهتم بي».

قالت هذا وهما يقفان فأمسك بيدها وأجاب: «ليس هذا الصباح وربما ليس بعد الظهر أيضاً، ولكن عليّ دوماً أن أكون قريباً خشية حدوث خطب ما في آخر لحظة. أريد أن تكون الحفلة رائعة من أجل أبويّ. عندما تزوجا لم يكن لديهما مال لإقامة حفل وهذه الحفلة هي تعويض عن تلك».

حدّقت إليه. عندما رأته لأول مرة، رأته مثالاً لرجل الأعمال العنيد القاسي في حياته الخاصة بقدر قسوته في حياته العملية. كان ذلك جزءاً منه، لكنه سمح لها بأن ترى الرجل في داخله من آن لآخر. وكثر حدوث هذا

مؤخراً، وكان هذا الرجل. . . يشغل البال، وبشكل رائع.

– أتحبين أن نتمشى على الشاطىء؟ أنا أحب رائحة البحر.

فأومأت. كان النهار بارداً لكنه مشمس. وكانت قد أحضرت معها ملابس دافئة مع حذاء طويل من الجلد وقبعة مريحة تغطي أذنيها، لمثل هذا الاحتمال.

غادرت غرفتها متلحفة كأبناء الأسكيمو فيما خرج كارتر من غرفته مرتدياً بنطلون جينز أسود وسترة سوداء جلدية. انحبست أنفاسها لحظة وهي تراه بهذا الشكل المثير، ثم قالت تبرر مظهرها: «خفت أن يكون الجوّ بارداً».

قال وهو يلامس أنفها: «سيكون كذلك فعلاً، وقد أضع رأسي مع رأسك تحت هذه القبعة».

كانت حدائق الفندق المدرّجة تصل إلى البحر. وكلما اقتربوا من الشاطىء كلما ازدادت برودة الريح. وعندما لاح البحر أمامهما، أصبحت شمس الشتاء وهج نور شاحب على المياه الباردة. ومع ذلك، كان المشهد جميلاً للغاية.

عليها أن تستمتع بكل لحظة من هذه اللحظات، كما حدثت نفسها، من دون أن تتساءل عما جعلها بهذه الأهمية. عليها أن تستوعب كل جديد تراه. كان جمال الأمواج الثائرة البيضاء، وزعيق طيور النورس الخشن في السماء الزرقاء فوقهم، كل هذا جزء من جمال الخليقة.

سألها وهما يسيران على الشاطىء: «أتشعرين بما يكفي من الدفء؟». كان يضمها إليه ما جعل النزهة نعمة مزدوجة. كانت تقدر الدفء الذي يمنحها إياه جسمه القوي، لكن شعورها بصلابة جسمه والبهجة لشعورها بالحماية، جعلاها تشعر بدوار.

طمأنته بضعف: «أنا بأحسن حال».

هواء البحر حمل كلماتها بعيداً، فجعل من ذلك ستراً مستحباً لخيانة جسمها لها.

كانت تدرك أن أنفها أحمر كالشمندر من دون شك حين دخلا مقهى صغيراً وجلسا إلى طاولة وأخذا يشربان الكاكاو. أزعجها أن كارتر بدا غافلاً عن برودة الجوّ، وعندما قالت له هذا ردّ برزانة، وعيناه تتراقصان: «هكذا هم الرجال. النساء ضعيفات والرجال أقوياء كما تعلمين».

وعندما قالت له كلمة فظة، ضحك عالياً. لكن تبادلهما هذا الحديث المرح الدافىء آلمها بشكل سخيف، فهذا كان يؤكد خطر جاذبيته الدائم.

لاحظ كارتر كيف تحوّلت عيناها عن عينيه إلى الكوب الذي في يدها وتكهن بسبب ذلك. بدت في تلك القبعة بأنفها الأحمر أشبه ببنت صغيرة. وشعر بطعنة ألم، لكن ليبرتي ليست بنتاً صغيرة. إنها امرأة، امرأة جميلة ومرغوبة ومصمّمة على أن تبعده عن محيط حياتها.

أخذ جرعة من الكاكاو. عليه أن يجاهد لربح المعركة وسيفعل ذلك، سيفعل ولو لآخر لحظة من حياته. وسخرت منه كبرياؤه، ما جعله يلوي فمه.

مد يده يرفع ذقنها ثم نظر في عينيها وقال برقة: «أنت تفكرين مرة أخرى. دعي أحاسيسك تقودك، انسي عقلك القانوني الذي ينظم كل شيء في ملفات أنيقة».

أرغمت نفسها على الابتسام: «إذا كنت أفكر فإني أفكر في هذا المكان الدافىء حيث أشرب الكاكاو وأنظر من النافذة إلى الريح والبرد».

كانت تكذب. وعندما رفع حاجبه ساخراً حاولت أن تتجاهل حركته إلا أنّ الرغبة في الدفاع عن النفس تحركت بحرارة وقوة. أراد أن يحثها على القيام برد الفعل، أن يواصل نكأ الجرح، ولم تشأ هي أن تسير في هذا الطريق. قالت بفتور: «لا أدري كيف حال جين وآدم».

فقال متهكماً: «ولا أنا».

تجاهلت تهكمه وأردفت: «رؤيتهما معاً وعلى وفاق ستجعل سهرة والديك ناجحة».

أومأ وقد بدت عيناه كالفضة في الضوء المتسرب من النافذة: «أمي متشوقة لتصبح جدة، وكانت على وشك أن تقطع الأمل منا، نحن الإثنين».

وأمسك بيدها ناظراً إليها بعينين لا تطرفان.

جاهدت ليبرتي كيلا تفكر في كارتر والأطفال... الأمومة... وتنحنحت وشدت يدها من يده وهي تقول: «سأذهب إلى استراحة السيدات قبل أن نعود».

في الاستراحة الصغيرة، نظرت إلى نفسها في المرآة القذرة المكسورة. كان أنفها متورداً كما خشيت. فابتعدت واستندت إلى الجدار وهي تتساءل عما رأى فيها كارتر، لكنها لم تجد جواباً عن تساؤلها.

وصول امرأة طويلة ضخمة تحمل طفلاً يصرخ قطع عليها تساؤلاتها فعادت إلى كارتر الذي كان جالساً ينظر من النافذة بكآبة قبل أن يراها.

بعد الغداء، وفي غياب آدم وجين الملحوظ تحججت ليبرتي بصداع وهربت إلى غرفتها بعد أن أخبرت كارتر أنها ستعود إليه بعد قليل.

كان هذا جبناً كما حدثت نفسها وهي تلقي بنفسها على السرير. لكنها كانت تشكو من صداع، لعل سببه الأساسي هو ذلك الألم في قلبها. هل هكذا تجري الأمور عادة؟ أليس من المفروض أن تكون تلك المشاعر مليئة بالبهجة والإثارة بحيث لا تريد لها أن تنتهي؟

تقلبت قليلاً قبل أن تدخل الحمام لتحضر كأس ماء شربته مع حبتين من الإسبرين كانتا في حقيبتها. كان الصداع قوياً فخلعت بنطلونها وكنزتها واستلقت تحت الأغطية.

ستنام مدة نصف ساعة أو نحوها حتى تتخلص من الصداع، ثم تذهب بعدئذ لترى كارتر وتسأله إن كان بإمكانها أن تساعدهم.

استيقظت بعد ثلاث ساعات على نقر على الباب، فوجدت الغرفة مظلمة. نظرت إلى ساعتها ولم تصدق عينيها. لقد نامت طوال فترة العصر، ولم تتذكر أنها فعلت شيئاً كهذا منذ كانت طفلة. وعندما عاد النقر على الباب، نزلت من السرير وارتدت عباءتها وشدتها حولها بإحكام ثم سارت حولها بإحكام قبل أن تسير إلى الباب تفتحه.

- كيف حال الصداع؟

كان كارتر يستند إلى الباب بكسل، لكن عينيه بقيتا على وجهها فقالت بسرعة: «ما أشد أسفي يا كارتر! قررت أن أستلقي دقائق عدة فقط لكني عندما أخذت الأسبرين استغرقت في النوم. أردت أن أساعدك في التحضير للحفلة».

- لا ضرورة لذلك.

ملامح وجهه العنيفة لانت لدى سماعه لهجتها المخلصة، وأزاح خصلة من شعرها عن جبينها: «إسمعي، آدم وجين في غرفتي ولديهما خبر لنا، هل لديك مفتاحك؟».

سألته باضطراب: «أليس عليّ أن ألبس ثيابي؟».

ردّ بابتسامة عريضة: «ما من وقت لذلك. على أيّ حال، تبدين محتشمة جداً في هذا الشيء الحريري، فهو يغطي من جسمك أكثر من العادة».

كما أنه يلتصق بجسدها ويظهر مفاتنها. وقال بصوت أبح: «أحضري المفتاح فقط وتعالي. إنهما ينتظران».

كانت غرفة آدم وكارتر مماثلة لغرفتهم هي وجين، لكن ليبرتي لم تهتم بالديكور حين دخلت. كان آدم واقفاً وذراعه حول كتفيّ جين. ومن الابتسامة المشرقة على وجهيهما، افترضت أن الخبر جيد.

مدت جين يديها وقالت بحماسة واندفاع: «ليبرتي، نريدكما، أنت وكارتر، أن تكونا أول من يعلم. أنظري، أصبحنا خطيبين».

قالت هذا وهي تمدّ يدها اليسرى ليلمع في إصبعها خاتم السوليتير.

- جين. ما أشد سروري.

واندفعت ليبرتي إليها تحتضنها بينما سار كارتر إلى آدم يصافحه مهنئاً: «عليّ أن أقول إنك سريع التصرف. لكن بما أن ما حصل استلزم عشر سنوات أو أكثر، فلن أقول ذلك».

وتابعت جين: «ستتزوج في الربيع. عرس هادئ فقط يضم الأسرة وبعض الأصدقاء ولكن في الكنيسة. لن أشعر بأنني متزوجة إذا لم يحدث ذلك في الكنيسة. هل لكما، أنت وكارتر، أن تكونا شاهدينا؟».

وعندما وجد آدم فرصة للكلام، قال بابتسامة عريضة وهو يضرب كارتر على ظهره: «سيحدث ذلك من دون رسميات، إذا شئت، طبعاً».

وقالت جين لليبرتي: «وأنت، وصيفة العروس. ستكونين وصيفتي الوحيدة، فقد كان لديّ خمس وصيفات في المرة الماضية، وهذه المرة أريد أن يكون الأمر مختلفاً».

فقال آدم بجفاء: «وسيكون كذلك فهو دائم».

- أعلم هذا.

قالت جين ذلك وهي ترتمي بين ذراعيه.

جاهدت ليبرتي لإبقاء الابتسامة على وجهها. تملكها السرور من أجل جين وآدم، ولكن ما هذا الحديث عن الشاهد ووصيفة العروس... فهي لا تدري إذا كانت علاقتها بكارتر ستستمر بعد أسبوع، فكيف الحال في الربيع؟ لكنها لا تستطيع أيضاً أن تقول هذا حالياً. عليها أن تجاريهم حالياً، ثم تناقش الأمر مع جين لاحقاً بعد، بعد أن يهمد هذا الصخب.

جلسوا يتسامرون ويضحكون، وراح كارتر وآدم يتبادلان النكات ما

يدل على عمق صداقتهما. وشعرت ليبرتي بالإسترخاء نوعاً ما.

وفي الساعة الخامسة، أعلنت جين أنها بحاجة إلى وقت وافر للاستعداد للحفلة، فيما راحت تجر ليبرتي إلى الباب وهي تضحك كتلميذة صغيرة. بدت في ذروة السعادة ما جعل ليبرتي تتساءل عما إذا كانت ستهبط إلى أرض الواقع يوماً ما. وعندما سارتا في الممر أمسك آدم بذراع ليبرتي وقال برقّة: «أخبرتني جين ما قلته لها هذا الصباح. شكراً يا ليبرتي، وأنا مدين لك».

وقبلها على خدّها بخفة، فرفع كارتر حاجبيه.

– هل فاتني شيء هام؟

ابتسم له آدم ابتسامة عريضة: «هذا ما يبدو».

فقالت ليبرتي بارتباك: «قلت لجين إن عليها أن تعبر عن مشاعرها، هذا كل ما في الأمر، لا شيء أكثر».

بدا متزناً وهو يقول وفي عينيه تسلية هادئة: «خذوا الحكمة من أفواه البسطاء».

عندما وصلت المرأتان إلى غرفتهما، شرعتا في الاستعداد بشيء من العجلة. كانت سعادة جين المحمومة المنعشة معدية، فوجدت ليبرتي نفسها مستمتعة بالضحك بحماسة متوترة. رفعت جين شعرها عند قمة رأسها فبدا كثيفاً أنيقاً ما أبرز جمالها الذي يشبه جمال جنية صغيرة، لاسيّما مع ثوب المساء ذي اللون الذهبي والأحمر الذي ارتدته.

– أتظنين أن بإمكاننا، أنا وآدم، أن نتبادل حديثاً هادئاً مع أمي وأبي قبل أن تنضمّا إلينا أنت وكارتر؟

فاجأت جين ليبرتي بسؤالها هذا. فقد كان القرار أن يجتمعوا لشرب العصير ولتبادل الحديث قبل نصف ساعة من بدء حضور الضيوف.

أومأت ليبرتي، فقد كانت تفكر في ذلك. وقالت بهدوء: «أظنني سأودّ

ذلك لو كنت مكانكما».

– هذا سيمنح آدم فرصة لطلب يدي، فقد قال إنه يريد أن تكون الخطبة رسمية.

وابتسمت جين وقد تألقت عيناها.

ارتقى آدم درجة أخرى في عيني ليبرتي، وقالت: «أحقاً؟ حسناً. هذا أفضل حتماً. إذن، فهو لا يريدنا، أنا وكارتر، أن نراقبه يطلب يدك رسمياً».

– إنها السابعة وعشر دقائق الآن وسيصل أبي وأمي قبل السابعة والنصف. سأنضم إلى آدم الآن وأخبره بما قررناه. هل أخبر كارتر أن يطرق الباب عندما يصبح جاهزاً للنزول؟

أومأت ليبرتي. فقد أنهت زينتها وتسريح شعرها ولم يعد عليها سوى ارتداء ثوبها ووضع لمسة من أحمر الشفاه على شفتيها.

عندما غادرت جين الغرفة ترفل في دوّامة ذهبية حمراء، خلعت ليبرتي العباءة وتوجّهت نحو الثوب الذي سترتديه، والذي علقته على باب الخزانة. كانت جين قد تأوّهت إعجاباً بهذا الثوب الأنيق «التول» المطرز بالخرز اللامع. كان أسطوري الجمال من دون شك لكن عندما تأملته، تملكتها الشكوك.

كان الثوب يلتصق بجسمها، ويبدو أكثر الملابس التي ارتدتها إغراءً. لكنها أرادت أن تبدو جميلة في عيني كارتر فلا تتحولان عنها إلى امرأة أخرى.

وقطبت بحيرة وغضنت أنفها وهي تحاول أن تحلل المشاعر المضطربة التي تملّكتها منذ تعرفت إليه لكنها لم تستطع، لم تستطع على الإطلاق. أرادته أن يرغب فيها كما لم يرغب في امرأة أخرى. ولكن، من ناحية أخرى، ذلك يخيفها حتى الموت.

لم يساورها مثل هذا الشعور نحو جيرارد ولو ثانية واحدة. هذا لأنها لم تحب جيرارد، ما جعل حبه وإخلاصه مأمونين تماماً ولا أذى منهما.

وما لبثت أن نهرت نفسها بضيق. فلتلبس ثيابها وتكفّ عن التفكير، كما كان سيقول كارتر لها لو أنه هنا... آه، كارتر...

أرغمت نفسها على ارتداء الثوب، وكانت نعومته رائعة وهو يصل إلى قدميها. كان الثوب قد بدا لها رائعاً في المتجر الفخم الذي دخلته مرة وقد تملكها الخوف والقلق. أما الآن، وفي زينتها الكاملة هذه وشعرها المسدل على كتفها... لم تستطع أن تجد كلمة تصف بها شعورها، لكنها تمنت لو بإمكانها أن تخزنه لترتديه في يوم تشعر فيه بأنها بدينة مبقعة البشرة.

عندما سمعت طرق كارتر على الباب، كانت تجلس على حافة السرير، تنشد الهدوء وهي تتصفح مجلة.

كان حذاؤها عالي الكعبين ما يتطلب طريقة مختلفة في السير، لكنها، وفي الأسبوعين اللذين مضيا على شرائه، تدربت على السير به. وها هي ذي تسير إلى الباب بسهولة تامة. فتحته وإذا بالذهول يتملكها.

كانت تعلم أن كارتر سيرتدي ملابس سهرة. لكن سترة العشاء السوداء وربطة العنق بدتا جديدتين، أو على الأقل لم ترهما من قبل... حتى البذلة الرسمية البيضاء التي كان يرتديها أحياناً للعشاء لا تقارن بما يرتديه الليلة. كان شعره الأسود مسرّحاً إلى الخلف، ووجهه الذي لوحته الشمس تفوح منه رائحة عطر ما بعد الحلاقة. بدا حلم كل امرأة.

- تبدين رائعة للغاية. ستكونين محط الأنظار الليلة.

فقالت بشيء من الانزعاج: «هذا ما لا أرجوه. إنها ليلة والديك وجين وآدم أيضاً».

- تفضلي.

وناولها علبة مستطيلة أخرجها من جيبه: «أردت أن أحضر لك عقداً

تتزينين به لكنني عدت ففكرت في أنه قد لا يناسب ما تلبسينه. وهكذا توخيت الحذر ورأيت أن هذه تناسب كل شيء».

نظرت إلى العلبة وكأنها ستلدغها: «ما هذه؟ ما كان لك أن تشتري لي شيئاً».

فقال بكسل هادئ كعادته حين لا يكون واثقاً من نفسه: «إفتحيها وانظري».

طرفت بعينيها متسائلة من أين جاءها هذا الظن؟ ثم أدركت أنه صحيح. إنها طريقته في حماية نفسه.

لم يعجبها فيض الحنان الذي شعرت به، فتصلّبت حتى قبل أن تفتح العلبة وترى السوار الماسي المتألق فيها. رفعت عينين واسعتين إليه: «كارتر.. لماذا؟ أعني أن المناسبة ليست حتى عيد ميلادي؟».

فقال برقة: «هل أعجبك؟».

- إنه رائع.

كان كذلك ولكن لا بد أنه كلفه ثروة. ونظرت إلى السوار بعجز.

فقال بهدوء: «هذا هو السبب. رغبت في أن أقدم لك هدية. هذا كل ما في الأمر».

مضت لحظة تملكها فيها أغرب شعور وهو أن فخاً انفتح أمامها، فخاً بفكين إذا أطبقا عليها مرة فلن يفلتاها. وقالت بصوت مرتجف:

- إنه جميل لكنني لا أستطيع قبوله... إنه... كثير جداً...

- ليس كثيراً على الإطلاق.

كان صوته هادئاً يخفي الفولاذ خلفه حين أحس بأن رفضها للهدية هو أكثر من مجرد تهذيب.

رفعت إليه عينين مذعورتين: «كارتر... لا أشعر بأن لي الحق في أن أقبل مثل هذه الهدية الثمينة».

حدق إليها لحظة قبل أن يهز رأسه بطريقة عكست ارتباكه: «لعلك المرأة الوحيدة التي عرفتها والتي تقول هذا وتعنيه. بالنسبة إلى غيرك من النساء هذه وسيلة لتصنّع الخجل».

غيرك.... ثمة نساء أخريات... الكثيرات منهن. وهو لم يحاول أن يخدعها في هذا المجال ولم تعلم لماذا شعرت فجأة بهذه الغيرة المحرقة، التي جعلت صوتها حاداً: «هذا كثير. أعلم أن نيتك طيبة لكنني لا أستطيع قبولها».

كانت عيناها مصممتين فيما توهج وجهها احمراراً. فقال وقد تلاشت الحماسة في صوته وشردت نظراته: «إنها لا تستحق الذكر. حلية تافهة، ضعيها ولننسى كل شيء عنها».

كانت أمها تحصل دوماً من عشاقها على هدايا بالمداهنة والتزلف. وعاودتها ذكرى لا تدري من أين. مشهد لأبيها وهو يحمل ساعة ذهبية لا تزال في علبتها، يرفعها عالياً صارخاً بأمها يسألها من أين جاءت بها، فيما أمها ترد، بعينين ملتهبتين وفم متوتر بأن هذا ليس من شأنه وأنه، إذا لم يشترِ لها الأشياء الجميلة، فثمة آخرون مستعدون لذلك.

أصبحت شاحبة للغاية على عكس ما كانت عليه منذ لحظات: «إنها ليست حلية تافهة بل سوار رائع الجمال، ولا أريدك أن تظنني ناكرة للجميل...».

- ولكن؟

كان صوته هادئاً... هادئاً أكثر مما ينبغي.

- لكن لا أستطيع قبولها.

شتم بصوت خافت، لكن تمتمته كان لها وقع الصراخ: «وما الخطأ في أن أقدّم لك هدية، بالله عليك يا ليبرتي، لِمَ لا؟».

لم تستطع أن تشرح له السبب لأنها لم تكن تفهم نفسها، فصمتت فيما

كبح رغبة تدفعه إلى أن يمسك بها ويهزها حتى تفهم. لكنه، وبدلاً من ذلك، مدّ يده إليها وعندما أعادت إليه العلبة وضعها في جيبه وقال بصوت فاتر صلب: «فلننس هذا، اتفقنا؟ لم يحدث هذا قط. والآن، هل ننضم إلى الآخرين؟».

قال هذا ببرودة الثلج وهو يستدير مبتعداً. كان هذا فظيعاً للغاية، فقد أفسدت الحفلة بالنسبة إليه. كان سعيداً جداً بإقامة هذه الحفلة لوالديه. وجين وآدم... ما فعلته يقلل من شأن كل ما يحصل. ولم تعرف ما تقول أو تفعل لكي تصلح الأمور: «كارتر... أنا آسفة».

هز كتفيه: «كما سبق وقلت، إنسي الأمر، فأنا نسيته. والآن، إذا كنت جاهزة فلننزل، إنهم بانتظارنا».

وعندما لم تجب أو تتحرك، التفت إلى الخلف بحركة تنبئ بانزعاجه. وإذا به يجمد مكانه وهو يرى لمعان الدموع في عينيها. عندما شتم هذه المرة كان ذلك برقة ويأس ثم أخذها بين ذراعيه. وقفا جامدين لحظة بدت لهما دهراً، كانت أثناءها تشعر بخفقات قلبه فيما غلفت رائحته، وجسمه الضخم، حواسها كلها إلى حد تمنت معه أن تبقى بين ذراعيه إلى الأبد.

قالت وقد دست وجهها في صدره: «ليس أنت... أو... السوار. لا أستطيع أن أوضح».

- أنا لا أطلب منك إيضاحاً.

رفعت رأسها وتشابكت عيناها بعينيه، ثم قالت برقة: «بل أنت تطلب، ولك كل الحق في ذلك. إنها هدية رائعة تبهج قلب أي امرأة».

حدّق إليها، منتبهاً إلى أنهما على مفترق طرق ولا يعلمان ما عليهما أن يقولا أو يفعلا لكي يهتديا إلى الطريق القويم. لكن شيئاً ما في داخله أخبره أنه لا يستطيع أن يستعجلها. ومع ذلك، شعر بأن طريقة صاعقة، مغلفة باللباقة، مطلوبة منه، فسألها بهدوء: «كيف ترين أمك، يا ليبرتي؟».

وإذ رأى التردد في عينيها، أمسك بذقنها ورفع وجهها إليه يرغمها على أن تنظر في عينيه بعد أن رآها تحوّل نظرها بعيداً: «أعني بصفتها إنساناً، شخصاً، لأن كل هذا مرتبط بها، أليس كذلك؟ إنها قطعة أخرى تُضم إلى مثيلاتها لكي تكتمل الأحجية».

ظنها سترفض الجواب، لكنها أومأت بعد لحظة وقد امتلأت عيناها بالدموع.

- كيف ترينها إذن؟ انسي لحظة أنها أمك وأخبريني ما ترينه.

- رتيلاء كبيرة سوداء.

كان صوتها همساً لم يكد يسمعه، لكنه أنبأه بما لم يكن ليكتشفه لو بقي يتحدث إليها طوال الليل. وشعر كارتر بأن عليه أن يفكر في ذلك، فسألها: «أتريدين أن تصلحي زينتك قبل أن ننزل إليهم؟».

كان لبقاً فلم يذكر البقع تحت عينيها. وأومأت ليبرتي: «لن أتأخر أكثر من دقيقة».

وغابت خمس دقائق، لكنه لم يكن يحسب الوقت.

٨ - كفى تفكيراً!

سارت السهرة كالساعة نظاماً وسهولة، ولا بدّ أنّ كارتر دفع مبلغاً ضخماً ليضمن هذه النتيجة. وقفت ليبرتي إلى جانب كارتر، وأبويه وجين وآدم للترحيب بالضيوف عند وصولهم. بدا واضحاً للجميع أن خطبة جين تسرّ أمها.

كانت أسرة مترابطة كما رأتها ليبرتي، وبدا جلياً أن الأم هي المحور الذي يدور حوله الآخرون. كان واضحاً أن زوجها يكن لها الحب نفسه الذي حمله لها على الدوام. كما كان كارتر وجين يحبانها هما أيضاً حباً جماً. كانت تعلم أنهما محقان في ذلك، لكنها شعرت أن ذلك أجمل من أن يكون حقيقياً. لا تظن أنّ هذا كله مجرد تمثيل بل هي الأسرة كما ينبغي أن تكون.

بعد وصول الجميع، جلس الستة إلى المائدة الرئيسية وألقى كل من كارتر وآدم خطاباً على شرف الوالدين. كان كلاهما مؤثراً ووجدت ليبرتي نفسها تغالب دموعها. لازمها شعور بأنها بعيدة عن محيطها، لكن الذنب ذنبها كلياً، فعليها فقط أن تنطق بكلمة واحدة لتضم إلى هذه الأسرة الرائعة.

ولكن إلى متى؟ هذا ما همس به صوت من أعماقها. أنت لا تظنين أن هذا سيدوم، أليس كذلك؟ ألا تظنين أن رجلاً مثل كارتر سيدرك أنه اقترف غلطة؟ كم سيستغرق من الوقت ليستنتج أنها مجرد امرأة عادية لا يمكن أن تكون أبداً كما يريدها وأنها امرأة ستخيّب أمله و. . .

بعد إلقاء الخطابين، جلس الجميع إلى الموائد يستمتعون بالطعام.

romancia.com

وكانت جلبة الحديث والضحك بين الموائد في أنحاء القاعة الفسيحة تظهر استمتاع الجميع بوقتهم.

افتتح الوالدان الرقص وسط التصفيق والهتاف من جميع المدعوين، وما لبث أن ازدادت الحماسة والهتاف والاستمتاع، ودار الرقص.

قدم كارتر ليبرتي إلى المدعوين كلهم عندما وقفت مع بقية أفراد الأسرة لاستقبال المدعوين في بداية السهرة... ثم حرص على أن يراقصها من دون انقطاع... كان رقصه رائعاً إذ شعرت وكأنها تسبح بين ذراعيه. عندما ضمها إليه، تركت حواسها تسيطر على عقلها، فشعرت وكأنها في الفردوس. وودّت لو أنّ هذه السهرة لا تنتهي.

وعند الساعة الثانية عشرة، توجه الجميع إلى مقصف يحتوي على كل ما لذ وطاب. وكان كارتر وليبرتي يختاران ما يريدان، حين ظهر آدم إلى جانبهما وهو يهمس بأن جين مرهقة، مشيراً إلى آخر القاعة حيث كانت تجلس على الأريكة وقد استغرقت في النوم: «سآخذها إلى غرفتها».

تبعه كارتر وليبرتي إلى حيث جلست جين، وقال كارتر وهو ينظر إلى وجه آدم المتوهج: «حالتها سيئة قليلاً. هل تريدنا، أن نساعدك؟».

فأجابه هذا وهو يتثاءب: «يمكنني أن أرعاها».

فقال كارتر بلهجة لاذعة: «ومن سيرعاك أنت أثناء رعايتك لها؟».

قال آدم وهو يتثاءب مرة أخرى: «هذا مضحك للغاية».

وفتحت جين عينيها المتعبتين فقال لها: «هيا بنا نصعد يا جين».

وعندما أخذ يساعدها على الوقوف، قالت لكارتر: «لقد ودّعت أمي وأبي. إنني مرهقة للغاية لأني لم أنم الليلة الماضية ولشدة حماستي هذا النهار. لا يمكنني أن أبقي عيني مفتوحتين الآن».

ابتسم كارتر لها وانحنى يطبع قبلة على خدها: «نوماً هنيئاً، يا طفلتي».

فوقفت جين على أطراف أصابعها تقبّله: «نوماً هنيئاً وشكراً، يا أخي

الأكبر».

كانت جين تشكره على أكثر من كلماته الأخيرة، وكلهم يعلمون ذلك فالدور الذي لعبه لكي يعيد أخته إلى حبيبها مهم.

عندما عادوا إلى حلبة الرقص، كانت الموسيقى قد استحالت إلى أنغام ناعمة حالمة. كان بعض الضيوف قد بدأوا يغادرون، كما غادر الأبوان بعد جين وآدم مباشرة.

لم تشأ ليبرتي أن يتوقف هذا السحر، فالعودة إلى العالم الحقيقي ستأتي مع الصباح. كل ما تريده الآن هو أن يحيطها بذراعيه، ويعانقها، وأن يكتنفها شعور سحري بأنهما في مكان لا وجود للعقل والتفكير فيه.

وفي الثانية صباحاً، كانا آخر من غادر تقريباً ولم يبق سوى عازف البيانو. عندما تناولت ليبرتي حقيبة يدها من على المائدة، رأت كارتر يمنح العازف هبة سخية قبل أن يعود إليها ويشدّها إلى جانبه وهما يخرجان متجهين إلى المصعد. وما إن أصبحا في داخله وانغلق الباب حتى أخذها بين ذراعيه وراح يعانقها حتى لم يبق في هذا العالم سوى كارتر. وتمتم يقول: «أنت حلوة كالعسل».

توقف المصعد أمام طابقهما، وكان السكون يسود في الممر عندما وصلا إلى باب غرفة ليبرتي.

- كانت سهرة غير عادية.

ابتسم لها وهو يقول ذلك، وفكرت في مقدار لباقته إذ لم يظهر أي شعور بالاستياء بسبب السوار. رفعت يدها تلمس وجهه الصلب فشعرت بلحيته النابتة تخزها ودهشت لعلمها أنه حلقها في بداية السهرة، كان رجلاً ذا حيوية لا تصدق. حتى لحيته تنمو أسرع مما تنمو لحى غيره من الرجال.

همست: «كارتر، عانقني».

ضمها إلى صدره القوي واعتصرها بذراعيه، مشعلاً فيها فيضاً عنيفاً

من المشاعر. وعندما تراجع عنها خطوة متمنياً لها نوماً هانئاً لم تعرف ما إذا كانت تريد أن تضحك أم تبكي.

لكنها لم تفعل أياً من ذلك بل قالت: «شكراً على هذه السهرة الجميلة، يا كارتر. وأنا... أنا آسفة بالنسبة إلى... السوار».

أجابها بالتواء فمه وتحية مختصرة وهو يستدير مبتعداً فيما فتحت بابها ودخلت.

أغلقت الباب وسارت نحو سريرها وإذا بها تراه مشغولاً. كان آدم مستلقياً عليه بملابسه الكاملة مستغرقاً في النوم، فيما جين مجرد كومة متكورة تحت الأغطية طلباً للدفء. كان ثوبها ملقى على كرسي بجانب السرير. يبدو أنه ساعدها على خلع ثوبها قبل أن ينهار على السرير الآخر. سارت ليبرتي إليه تهزه من كتفه وهي تهمس: «آدم، آدم، استيقظ».

لم تسمع منه عدا شخير غير شاعري. وحاولت مرة أخرى؛ وعلا صوتها وأصبح أكثر عنفاً من دون أن يؤثر كل هذا فيه. وأخيراً أقرت بالهزيمة ووقفت تحملق فيه.

عظيم، عظيم ماذا عليها أن تفعل الآن بعد أن فقدت قدرتها على التحمّل والتفهم منذ وقت طويل؟

جاءها الجواب طرقاً حذراً على الباب. وعندما فتحته قال كارتر: «يبدو أن عريساً ضاع».

فتحت الباب على مصراعيه وهي تقول بخشونة: «إنه هنا، في سريري. لكنه لا يتزحزح».

فقال ضاحكاً: «بل على سريرك».

حملقت فيه وكأن الذنب ذنبه: «مهما يكن، لكنني لا أستطيع أن أوقظه».

- ولن تستطيعي. عندما كنا في الثامنة عشرة ذهبنا ضمن مجموعة في إجازة بالمركب، فربطناه إلى الرصيف. كان المدّ عالياً. فانزلقت الأشياء من القارب وتحطمت، وانتهى آدم خارج سريره نائماً على الجدار ولم يعلم بشيء مما حدث قط.

نظرت ليبرتي إليه عابسة: «هل يفترض بهذا الخبر أن يساعدني؟».

- إني أخبرك فقط بما حصل.

ألقت عليه نظرة سريعة ولكن مهلكة قبل أن تنظر إلى السرير مرة أخرى: «ألا يمكنك أن تحمله إلى غرفتك؟ استخدم مصعد الإطفاء أو أي شيء؟».

نعم، يمكنه ذلك، لكنه لن يفعل، فلن يظفر بفرصة كهذه مرة أخرى... إنها نعمة هبطت عليه من السماء. أجابها: «لا. إنه ضخم الجثة وطويل. وحين ينام، يصبح ثقيلاً للغاية».

لم تضرب قدمها بالأرض منذ طفولتها لكنها فعلت الآن: «وأين سأنام أنا؟ في الحمام؟».

فقال بما يشبه الصدمة: «كلا طبعاً. ثمة سرير فارغ في غرفتي، أليس كذلك؟ هذا حل جيد جداً».

لمن هذا الحل؟ ونظرت إليه مجيبة: «لا أظن ذلك».

فسأل بكل براءة وتعقّل: «ولِمَ لا؟».

- لأن...

ولم تعرف كيف تعبر عن أفكارها بالكلمات... وسكتت وهي تحدّق إليه بعجز.

- ليبرتي، نحن راشدان. السريران في هذه الغرفة مشغولان وسيبقيان كذلك حتى الصباح. فيما السريران في غرفتي خاليان، أحدهما لك والآخر لي. هل من شيء أوضح من هذا؟

بدا الأمر سهلاً بهذا الشكل، لكن كارتر موجود.

قال بحزن: «أتفهّم طبعاً، إذا كنت لا تثقين بنفسك وبقدرتك على البقاء بعيدة عني».

يا له من رجل متغطرس. في الواقع... إنها لا تثق بنفسها فعلاً، ومع ذلك يبقى متغطرساً، حتى لو كان ما قاله مزاحاً. قالت بهدوء: «هذا غير صحيح».

- حسناً، إذن؟

وابتسم ابتسامة طبيعية أشبه بابتسامة الأخ الأكبر وهو يتابع: «لقد حُلّت المشكلة، أحضري فقط ما تحتاجينه لليلة وسنترك هذين الحبيبين نائمين، فقد أمضيا يوماً شاقاً».

قال جمله الأخيرة بمحبة بالغة وكأنها مستبدة لئيمة في مطالبتها بسريرها.

وجدت نفسها أمام خيارين مرّين وصعبين. لا يمكنها أن تنام على الأرض أو في الحمام. ولكن ثمة أجراس كثيرة تنبهها وتمنعها من الراحة.

- ليبرتي؟

كان عقلها مضطرباً، ولم تستطع أن ترى الأمور بشكل واضح. وأخيراً قالت: «لا بأس. سأحضر حاجياتي لليلة».

اطمأنت نوعاً ما إلى طريقته العفوية الطبيعية وهو يقول: «حسناً، تعالي عندما تصبحين جاهزة ولا تنسي أن تحضري معك مفتاحك لكي تعودي إلى هنا في الصباح».

خروج كارتر في هذه اللحظة كانت خطوة استراتيجية كما اعترف لنفسه وهو يسير إلى غرفته، تاركاً الباب موارباً لتتمكن ليبرتي من الدخول. إنها تسدّ عليه السبل كلها، وترفض حتى التخلص من يد أمها الخانقة التي تقبض على مشاعرها وقدرتها على الحب والثقة.

في الأسابيع الماضية، كلما ظن أنهما تقدما خطوة، تعاكسه الظروف فيخطوان خطوة إلى الخلف. دفاعاتها قوية بحيث أن كسبه ثقتها قد يستغرق سنوات وهو لا يريد أن ينتظر سنوات. لا يظن أن بإمكانه أن يحتمل ذلك. إنه يحبها، بحق السموات. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

كان قلب ليبرتي يخفق بقوة وبألم وهي تدق الباب. وعندما لم تسمع جواباً، أطلّت برأسها من الباب لتجد الغرفة خالية. لا بد أنه في الحمام.

دخلت مترددة على أطراف أصابعها، وعندما سمعت صوت المياه في الحمام، استرخت قليلاً وأخذت تتأمل الغرفة، متوترة.

عرفت سرير كارتر على الفور. فقد كان بنطلونه وسترته ملقيين على السرير بإهمال الرجال، كما بدا أنه جلس على حافة السرير ليخلع حذاءه وجوربيه.

أرغمت نفسها على التوجه إلى السرير الآخر وكأن هذه الليلة ليلة عادية جداً. جلست على حافة السرير، تشدّ قميص نومها وعباءتها وحاجياتها إلى صدرها، قبل أن ترغم نفسها على الاسترخاء ووضع أغراضها في حجرها.

ساد الصمت في الحمام، فتوترت كل عضلة في جسمها.

- مرحباً.

خرج من الحمام وقد التف بمنشفة وبدا جسمه بعضلاته الكبيرة كالحرير اللامع: «لم أسمعك تدخلين».

- لأنك كنت تستحم.

- هذا صحيح.

ضاقت عيناه وهو ينظر إليها: «فكرت في دخول الحمام قبلك لأخلي لك السبيل عندما تأتين».

وجدت من المستحيل المشاركة في أي حديث طبيعي أمام هذا الجسد الرجولي شبه العاري.

- إذا شئت أن تدخلي الآن؟

وأشار إلى الحمام بينما بقيت هي جالسة كأرنب مسحور أمام أفعى توشك أن تلتهمه.

- شكراً.

هبّت واقفة فسقط قميص نومها على الأرض فانحنت تلتقطه وكادت تقع. استعادت توازنها، من دون أن تنظر إلى كارتر، ثم اختفت في الحمام وأغلقت الباب خلفها. هل عليها أن تقفله؟ حدقت إلى الباب وكأنها تتوقع منه جواباً. إذا فعلت ذلك فسيبدو الأمر وكأنها لا تثق به، وإذا لم تفعل فقد يبدو ذلك وكأنه دعوة منها.

تغلّبت راحة بالها على أي اعتبار لمشاعر كارتر. وعندما أقفلت الباب استندت إليه واهنة الركبتين. وتطلّبت عودة خفقات قلبها إلى طبيعتها أكثر من دقيقة. عندما حدث ذلك، تساءلت عما يجعلها تتصرف على هذا النحو. يمكنها أن تعتبر ما يحصل نوعاً من أفعال القدر؟ لكنها ليست مستعدة. وتأوهت عندما خطرت لها هذه الكلمة الأخيرة. الأحلام والتخيّلات جيدة في ضوء النهار، لكن يبدو الأمر مختلفاً تماماً على أرض الواقع. والآن، عليها أن تستحم. حاولت أن تسترخي لكن أعصابها بقيت مشدودة كأوتار البيانو، ولم تنفعها المياه الدافئة على جسمها فقد بقيت على توترها عندما انتهت.

فتحت حقيبتها الصغيرة، وأخرجت منظف البشرة. وعندما تألقت بشرة وجهها لبست قميص نومها ثم أخذت تنظر إلى صورتها في المرآة.

هل ستجده نائماً عندما تخرج؟ ثم عادت وسخرت من نفسها. هذا كارتر ولا يمكن أن يكون نائماً، ولا أن يتظاهر بالنوم احتراماً لحشمتها. إنه ليس من هذا النوع.

عندما خرجت من الحمام، وجدته يبحث في الثلاجة الصغيرة في

الغرفة: «ظننت أنك قد ترغبين في كأس من الماء».

كان قد استبدل المنشفة ببنطلون بيجاما من الحرير الأسود، لكن هذا لم يخفف من تأثير القسم الأعلى من جسمه.

لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر إليه، فرجولته صارخة.

بللت شفتيها بلسانها فرأته يراقب هذه الحركة، فقالت: «شكراً...».

سأل بعفوية: «مياه عادية أم غازية؟»

- ماذا؟

فأجاب بصبر: «الماء، أتريدينه عادياً أم غازياً؟»

- بل ماء عادي من فضلك.

- سيشعران بإحراج بالغ عندما يستيقظان في الصباح. أو هذا ما سيشعر به آدم على الأقل حين يرى أنه استولى على سريرك.

- ماذا؟

لكنها سارعت تنتقد نفسها بمرارة لأنها ما انفكت تردد كلمة(ماذا) ما يعكس توترها ويظهرها بمظهر المعتوهة.

وضع زجاجة الماء قرب سريرها، وهو يسير بخفة ورشاقة القط: «أعني آدم وجين... سأحضر لك كأساً».

ثم دخل الحمام ليحضر كأسين، فيما ابتلعت هي ريقها بصعوبة ونصحت نفسها بالتشجع.

الضوء الرئيسي كان مطفأً حين دخلت غرفة النوم، والنور الوحيد فيها كان منبعثاً من مصباح في الزاوية.

سألها بلطف: «لماذا تبدين أجمل وأكثر انتعاشاً عندما تخرجين من الحمام من دون أي زينة على وجهك؟ كيف تفعلين ذلك؟».

نظرت إليه، إلى عينيه العميقتين اللامعتين. فأجابت بنفس اللطف: «أحقاً أبدو كذلك؟».

- وبشكل يأسر القلب.

وضع الكأس بجانب الزجاجة ثم جلس على حافة سريرها وتمتم: «أتعلمين كم أرغب فيك؟ هل لديك أي فكرة؟».

لم تراوغ بل ردّت: «أظن ذلك، إذا كانت رغبتك مماثلة لرغبتي فيك».

رأت أنها أدهشته، لكنها لا تلومه. ربما يظنها تتلاعب به، مظهرة الحرارة تارة والبرودة تارة أخرى. وربما هذا صحيح. . . ولكن ليس عن قصد. ليس عن قصد أبداً!

وإذا بآخر خيط من غريزة حفظ الذات يطل برأسه ويسألها عما تفعله مع هذا الرجل؟ فهذا مخالف لكل ما حدثت نفسها به منذ عرفته.

وعندما أحنى رأسه يعانقها، همس: «أشعر وكأنني أعرفك منذ بداية الزمن. هذا جنون، أليس كذلك؟ أشعر وكأنك كنت دوماً جزءاً مني».

لم تجب إذ استبدّت بها رجفة عميقة في الداخل. وعندما أغمضت عينيها، زاد الظلام من شعورها بأنها في عالم لم تعرفه من قبل. عالم تسود فيه المشاعر الرائعة وهي الخادمة المطيعة لها، ولم يعد ثمة وجود للزمن.

يمكنها أن تبقى معه طالما يرغب هو في ذلك وطالما أنه يريدها. هذا لن يدوم طبعاً، فهذا غير ممكن. الحياة الحقيقية ليست بهذا الشكل. لن تخدع نفسها وتشترط الزواج أو أي شيء مماثل. فالزواج يعني الإلتزام والثقة.

فتحت عينيها ومدت يديها إليه قائلة: «أريد أن نبقى معاً طوال الوقت الذي تريدني فيه».

قبل لحظات، كان عناقه عنيفاً، لكنه جمد حالما أنهت كلامها، وبقي من دون حراك للحظات. كانت عيناه هما الشيء الوحيد الحي في وجهه المظلم، إذ بدتا ملتهبتين لامعتين. ثم، ومن دون إنذار، ابتعد عنها ثم وقف ينظر إليها وقد التوى محيّاه بتعبير بالغ الغرابة.

تملكها الخوف. ماذا قالت؟ ماذا فعلت؟

- ماذا حدث؟ ما بك يا كارتر؟

مضت لحظة أو اثنتان من دون أن يقول شيئاً، لكنها لاحظت أنه يتنفس بصعوبة. انتقل إلى السرير الآخر حيث جلس وكأنه يريد أن يضع مسافة بينهما.

- كارتر. . . ماذا تراني فعلت؟

- لا أريد أن يحدث الأمر بهذا الشكل.

حدّقت إليه غير قادرة على التصديق أنه يبتعد عنها. وبدت التعاسة في عينيها والاحمرار على وجهها. إنه لا يريدها!

انتظر حتى جذبت غطاء السرير عليها وأحكمت شدّه حولها ثم قال: «ظننت أن بإمكاني أن أفعل هذا، لكنه ليس صواباً، ليس معك وليس الآن».

كان فمها يرتجف لكنها قررت ألاّ تبكي أمامه: «لا أدري ما تعنيه».

فقال بصوت حاد قاطع: «أعلم ذلك، وهذه هي المشكلة».

ولأول مرة رأت الغضب على وجهه فانكمشت بينما قال وهو يشير إلى السرير: «طوال الوقت، كنت ترفضينني، أليس كذلك؟ ليس جسدياً. أنا لا أعني ذلك، لكن في أعماقك، وهذا هو المهم. أنت لا تصدقين أنني صادق معك».

- أنا. . . لم أكن. . .

وسكتت لتمنع أسنانها من الاصطكاك كما جاهدت لكي يبدو صوتها هادئاً: «أنا قلت الحقيقة. . . فأنا أريدك حقاً. أنا. . .».

وترددت، لكنها أدركت أن عليها أن تعترف الآن لأنها لن تتحلّ بالشجاعة مرة أخرى: «أنا أحبك».

- لكنك لا تثقين بي. لا تصدقين أنني سأبقى معك مهما حملت لنا الأيام، وأن علاقتنا ستدوم مدى الحياة. أنت لا تصدقين هذا، أليس

كذلك؟.

فهمست بيأس: «لا يمكن لأحد أن يتأكد من ذلك على أيّ حال. لا أحد. لا أنت ولا جين أو آدم».

- بل هذا ممكن. لقد عرفت هذا منذ اللحظة التي وقع فيها بصري عليك. أنا أحبك، أحبك إلى حد الجنون.

قالت بانكسار: «لو كنت تشعر بذلك حقاً لما ابتعدت عني».

تفوّهت بما خطر لها من دون اهتمام لما يبدو عليه.

فقال برقة: «لقد توقفت أيتها الحائرة المشوّشة لأنني أشعر بذلك. لا أريد علاقة عابرة معك يا ليبرتي ولم يحدث أن أردت ذلك، فلديّ من هذه العلاقات ما يكفيني طوال الحياة. أريد أن أتزوجك، هل تفهمين؟ أريد أن أعلم أنك زوجتي وأنني زوجك، وأننا تعاهدنا على أن ننسى كل الآخرين بقية حياتنا. لعل هذه الكلمات قديمة الطراز، رجعية. وسأكون أول من يعترف بأنني لم أكن أظن نفسي رجلاً قديم الطراز، لكنني لم أكن أعرفك حينذاك. أريد أولاداً... وكل ما يأتي مع الحياة الزوجية. أريد أن نكون دوماً معاً، ونستيقظ بجانب بعضنا البعض طوال حياتنا، وأن نشيخ معاً، ونراقب أحفادنا وهم يلعبون في الشمس...».

- لا يمكنني أن أفعل هذا ... أنا لست من هذا النوع.

- فليذهب كلامك هذا إلى جهنم، لأنك هكذا بالضبط. أنا أعرف ذلك من قلبي... لأنني أعرفك أكثر مما تعرفين نفسك.

قال هذا وعيناه تلتهبان غضباً، لكنها هزت رأسها فانسدل شعرها يخفي وجهها: «لا، هذا غير صحيح، فنحن لم نعرف بعضنا البعض إلا لفترة وجيزة...».

- وهذا يكفيك لكي تعرضي عليّ علاقة تدوم طالما أريدك.

قال هذا بقسوة متعمّدة، مدركاً أنه يحارب من أجل حياته: «أخبريني

أنك فعلت ذلك مع رجل آخر... في الماضي... أخبريني بأن الإغراء تملكك للقيام بذلك مع رجل آخر».

لم يكن هناك جواب، ولم تتحرك.

- لا يمكنك ذلك وإلا لكنت تكذبين. أنت تعرفينني يا ليبرتي، تعرفينني وكأنني نصفك الآخر... لكنك لا تريدين أن تسمحي لعقلك بأن يعترف بذلك.

- لقد حطّمت أمي قلوباً ودمّرت أسراً، وكل ما كان عليها أن تفعله هو أن تحرك إصبعها الصغير ليرتمي عند قدميها مغفل آخر. ولا أريد أن يحدث هذا لي.

كانت كلمات فاترة، لكنه شعر بأنها انتزعتها من أعماقها، فسألها مستفهماً: «هل تعنين أنك لا تريدين أن تكوني مثلها أم أنك خائفة من أن تأتي امرأة أخرى وتدمّر حياتنا؟».

- أنا خائفة من الأمرين. لا أدري...

لم تعرف كيف تعبّر عما تريد وما تريده أن يفهم... ليته يدرك أنها لا تستطيع أبداً أن تعطيه ما يريد.

- لقد أفسدت أمك حياتها وحياة كثيرين، هذا صحيح، لكن لا تدعيها تفسد حياتك. لقد أقنعتك بأن العلاقات الوحيدة الناجحة هي العلاقات العابرة، فأنت لا تصدقين أن الرجال يمكن أن يقاوموا نداء الجسد، كما أنك لا تصدقين أن ما تشعرين به يمكن أن يدوم.

لم تنكر ذلك، لم تستطع. فسألها بهدوء: «وما هو دور أبيك في هذا كله؟ لقد أعلنت بلسانك أنه انتظر المرأة التي يحبها سنوات وسنوات. لم يكن على حدّ علمك، يعبث مع النساء».

لكن أباها غير عادي. وتململت في السرير إذ أدركت أنها إذا قالت هذا صبت الزيت على نار غضبه. لكن يبدو أنه قرأ ما لم تقله: «لا بأس، أبوك

هو أبوك. ولعل هذا ليس أفضل مثل في العالم. ولكن ماذا عن أبي؟ ما عليك إلا أن تريه مع أمي لتدركي أنه يعتبرها أفضل ما في العالم، ولطالما كانا كذلك. صدقيني».

لكنها ليست ماري بليك. مهما يكن ما يجعل زوج ماري بليك مخلصاً لها فهذا لا يعني أن لديها الشيء نفسه. إذا كانت أمها قد اختارت أن تتركها و ألا تراها إلا نادراً، لئلا ينتقدها الناس، فهذا ليس دليلاً يبشر بالخير.

لاحظت ليبرتي التناقض في منطقها لكن هذا كان اعترافاً عقلياً وليس قلبياً.

سألها بعد لحظات: «إذن إلى أين نتجه، يا ليبرتي؟ عليّ اللعنة إذا كنت سأرضى بعلاقة عابرة. ليس لأنها ليست ما تحتاجينه وحسب، بل لأنني سأنتهي إلى الاحتراق بشعور الغيرة كلما غبت عن ناظري».

نظرت إليه الآن، وقد لاحظت أن الغضب والألم يخفيان خلفهما أثراً من الهزل. وقالت وهي ترتجف، وقد تبلل وجهها بدموع كانت تخفيها: «لا أدري».

- أتريدين أن تنتهي علاقتنا هنا؟ أن تذهبي سالمة؟

فأجابت على الفور: «لا».

لم يكن عليها أن تفكر بجواب.

- لكنك تريدين إن يكون كل شيء بشروطك. وإذا أردت أيّ مستقبل لي معك، فلن يشتمل على التزام أو ثقة أو إمكانية الزواج وانجاب الأولاد، فهل هذا صواب؟

أراد أن يجعلها ترى عدم التعقل لديها. لم يفصح عن مشاعره، ولم تستطع أن ترى عينيه في الضوء الخافت. إنها تحبه... تحبه أكثر مما تصوّرت نفسها قادرة أن تحب شيئاً أو شخصاً. وإذا وافقت على قوله هذا فسيقول لها إنه غير موافق على شروطها، وتنتهي بذلك علاقتهما. لكنها لا

تستطيع أيضاً أن تكذب فتعده بأن تتزوجه.

ضغطت على عينيها محاولة تصفية أفكارها. لم تستطع التفكير بوضوح، فقد كانت أفكارها في حالة من الاضطراب والهياج لم تستطع معه أن تستقر على شيء. تمنت لو تعود الأمور إلى وضوحها الذي كانت عليه قبل أن تعرفه. حينذاك، كانت تعرف ما تريد. تعرف ما ستؤول إليه حياتها. كل شيء كان منظماً من دون مشاعر تعكر صفو حياتها. لكن المشاعر سيطرت الآن على تفكيرها وشلّت تعقّلها.

والخوف! الخوف من أن تفقده... الخوف من أن تسوء الأمور... الخوف من أن يطلب منها ما لا تستطيعه... الخوف من أن يتراجع حبه لها ليموت في النهاية. لكن خوفها الأكبر، أبو المخاوف كلها، هو من أن يتمكن من إقناعها بأن تكشف له ما تخفي في أعماقها. عندئذ، بقايا حفظ الذات ستذهب وستصبح غاية في العجز.

قالت بهدوء، عالمة بأنها تدور حول الموضوع لأنها غير قادرة على قول أي شيء آخر: «أنا... أنا سألتزم بك ما دمنا نخرج معاً، فأنا لا أريد علاقة غير ملتزمة أكثر مما تريدها أنت».

- سنكون مخلصين بهذا في علاقتنا... من دون أن نكون مخلصين تماماً. إلى أن يرغب أحدنا في الافتراق عن الآخر؟ لكن ماذا لو أننا، نحن الاثنين، لا نريد الافتراق عن بعضنا على الإطلاق؟ هل سنخسر حياة الأسرة، والأولاد، والأحفاد وكل شيء؟

وصف الأمر بهذا الشكل يجعله يبدو جنوناً، وهو ماهر في الكلام، ما أشعرها بالاضطراب والتعب. فتمتمت بعجز: «لا أدري. ألا تفهم؟ أنا لا أدري».

مضت لحظة أو أكثر ساد فيها صمت تام. وأخيراً قال بهدوء: «نامي، يا ليبرتي. الوقت متأخر».

تنام؟ هل هو مجنون؟ وصدرت عنها ضحكة قصيرة جافة، ثم قالت وهي تنظر إليه يدخل السرير ثم يدير لها ظهره: «هذا مضحك، لكنني لا أستطيع».

– حاولي.

كان يتهكم ولا بد أنه أنهى حديثه. فسوّت وسائدها بضربات عنيفة لا ضرورة لها، شاعرة بأنها تريد أن تصرخ وتبكي. قال لها أن تنام وكأنهما كانا يتحدثان عن كتبهما المفضلة أو خرائط البحر الملونة أو ما شابه. إن الرجال نوع مختلف من المخلوقات حقاً.

استلقت في السرير بصمت لدقائق رافضة أن تتحرك. كانت واثقة من أنه مستيقظ وهذه هي التعزية الوحيدة التي شعرت بها. وبعد ربع ساعة تقريباً، انتبهت إلى تنفسه المنتظم الآن. وعندما أصبح مصحوباً بشخير خافت للغاية، واجهت حقيقة أنه نائم.

كيف استطاع ذلك؟ ولم تعد تستطيع مغالبة دموعها فتدفقت تغسل وجهها. مسحت دموعها بظاهر يدها بعد فترة كيلا يكون نومه زائفاً، لكنه لم يكن كذلك إذ انقلب على ظهره متمتماً بشيء ما، ما جعلها تشعر برغبة في التقدم منه ولكمه.

بعد عشر دقائق، نهضت وأطفأت المصباح في زاوية الغرفة لكي تستطيع النوم، ثم عادت وقد شعرت برأسها يكاد ينفجر.

بعدئذ، شعرت بشيء من الخدر لكن النعاس بقي يجافيها حتى ابتدأت خيوط الفجر تتسرّب إلى الغرفة، ففتحت عينيها واستدارت على جنبها تنظر إلى كارتر.

كان مستلقياً على بطنه مستغرقاً في النوم، والبطانية تغطيه إلى خصره. كان وجهه مائلاً نحوها ويده على خده وشعره الأسود مشعثاً قد سقطت خصلة منه على جبينه. وللحظة، رأت فيه الصبي الذي كان عليه يوماً.

حدّقت إليه ثم نزلت من السرير بهدوء، وسارت إلى جانبه حيث أخذت تتأمله لحظة طويلة، وهذا ترف لا تتمتع به عادة.

الملامح الخشنة بدت رقيقة خلال النوم، والفم الصارم مسترخياً، حتى ذقنه الحازمة وأنفه المشابه لمنقار الصقر لم يبد عليهما أثر لقسوتهما المعتادة. كان وجهاً قوياً، وجهاً ينطق بالخبرة في الحياة، وجذاباً إلى حد مخيف.

قطبت جبينها وهي تحاول أن تحلل عقلياً كيف استطاع أن يصبح بهذه الأهمية بالنسبة إليها في مثل هذا الوقت القصير. عندما رأته لأول مرة حاولت أن تقنع نفسها بأن هذه الجاذبية جسدية فقط، لكنها، وخلال أيام، اضطرت إلى الاعتراف بأنها تخطت ذلك. لقد جذبها هذا الرجل أكثر من أي رجل آخر عرفته في حياتها. لقد استولى على قلبها. ورغم كل جهودها لمقاومة ذلك، استولى على قلبها وجعله أسيره. وقوله إنه يحبها، وإنه يريد أن يتزوجها يجب أن يجعلها أسعد امرأة في العالم. فلماذا لم تشعر بهذا؟

تحرك بخفة، فتوترت عضلات كتفيه القويتين وظهره قليلاً ثم عادت واسترخت كما عاد تنفسه إلى انتظامه.

إنها لا تستطيع الحياة من دونه. وعادت تتأمله دقيقة أخرى قبل أن تلامس وجنته بلمسة خفيفة للغاية ثم تتراجع إلى سريرها. لكن ماذا لو لم تستطع أن تعيش من دونه أو هو من دونها؟ ماذا لو مزقا بعضهما بعضاً كما يفعل بعض المحبين؟ ماذا لو. . . ؟

كفى! لقد بدأت تفقد الشعور بالسلام الذي غمرها عندما وقفت تتأمله، فانقلبت على جنبها وأغمضت عينيها. كفى تفكيراً الآن، فهي منهكة كلياً.

٩ - لست مستعدة

عندما استيقظت ليبرتي رأت أنّ أشعة شمس الشتاء البيضاء الباردة تملأ الغرفة، وأنّ ثمة ما يهزها برفق. فتحت عينيها الناعستين فرأت رأس كارتر فوق رأسها. قال لها: «صباح الخير. الفطور جاهز».

- كارتر؟

وعادت الذكرى إلى ذهنها.

- الساعة الحادية عشرة تماماً الآن وعلينا أن نغادر الغرفة في الثانية عشرة. فكرت في أنك قد تحبين تناول الفطور في السرير، هل أنت جائعة؟

كان سؤالاً عفوياً وكأنه أمر عادي، فحدقت إليه ببلادة وهي تفرك عينيها وتستقيم في جلستها. كان قد حلق ذقنه وارتدى ملابسه وراحت عيناه تلمعان بشكل فظيع. نظرت إلى الصينية بين يديه ثم سألته بضعف: «وأين فطورك؟ ألن تأكل شيئاً؟».

- تناولت الفطور مع جين وآدم منذ ساعتين. لقد رحلا لكنهما أرسلا إليك حبهما، وستتصل بك جين أثناء الأسبوع.

- لكنني. . .

ونظرت إلى الباب ثم إليه. لابدّ أن آدم دخل الغرفة ليأخذ حوائجه، والأسوأ هو أنه كان بإمكان كارتر أن يتأملها وهي نائمة. لم تهتم بأنها فعلت الأمر نفسه وهو نائم: «كان عليك أن توقظني. بِمَ فكر آدم؟».

- أنت كنت في سريره وليس في سريري.

فحملقت فيه: «أنت تعرف ما أعنيه».

- كنت مغطاة تماماً ومحتشمة للغاية. لم يكن يبدو منك سوى أنف متورد وخصلة شعر.

لقد جعلها تبدو كجرذ في جحره.

- سيظنان أني قليلة التهذيب لأنني لم أودعهما.

- إنهما لا يعرفان حسن السلوك، فقد احتل آدم سريرك فمن تراه يهتم بما يظنانه؟

وانتبهت إلى أنه يتأملها، فرفعت يدها إلى شعرها بخجل: «شعري مشعّث».

- كنت متشوّقاً لأن أعرف كيف تبدين عندما تستيقظين من النوم، وها أنذا عرفت أنك تبدين ناعمة ومشعثة ومثيرة إلى حد جهنمي.

وجدت هذه الصفة أفضل من صفة الجرذ. حدّق إليها وراح يتساءل كيف سيتمكن من إبعاد يده عنها حتى تقبل به زوجاً؟ ثم أومأ إلى محتويات الصينية: «خبز محمص ومربّى وعصير برتقال وبيض ولحم و«كرواسون». وقد طلبت إبريق قهوة للساعة الحادية عشرة والنصف قبل أن نغادر».

ونظر إلى قميص نومها ثم أردف: «من الأفضل أن ترتدي ثيابك إلا إذا كنت مصممة على الرحيل بهذه القطعة من الساتين؟ انتبهي إلى أن لا اعتراض لي على ذلك، لكن قد نصادف سائق شاحنة ربما يفقد تحكمه بعربته إذا نظر إلينا ورآك».

ابتسمت بحذر. لم تكن واثقة من أين جاء موقفه هذا الصباح الذي يوحي بأن الليلة الماضية لم تحدث قط. أم أن هذه البشاشة تعني أنّ المشاعر التي تملكته لم تكن عنيفة؟

وفجأة، لم تعد تشعر بالجوع.

لم تكن واثقة مما إذا كان شعورها قد بان على وجهها، لكن وبعد أن

وضع الصينية على ركبتيها وسوّى الوسائد خلفها، جلس على حافة السرير وقال برقّة: «كلي، ولا تبدئي باجترار تلك الأفكار كلها. ما زال اليوم في أوله».

وتناول قطعه خبز وشرع يأكلها، وهو يضحك لها.

ما كان ليبتسم في وجهها بهذا الشكل إذا ما قرر أن يهجرها. وتناولت كأس العصير ترشف منه. لكنه ليس من ذلك النوع من الرجال الذي يعلن في الليل حباً خالداً، ليعلن في الصباح شيئاً آخر. كان عليها أن تعلم ذلك. أراد صوت خفي في أعماقها أن يجادلها لكنها تجاهلته.

أحضر النادل القهوة فيما هي تستحم. وبعد أن ارتدت ثيابها وأنهت زينتها جلست تشرب القهوة وتنظر إلى كارتر الذي كان يقرأ صحيفة الأحد وقهوته بجانبه. بدا مقطباً قليلاً وهو يقرأ، ولم تكن هذه لحظة تستحق أن تجعلها تشعر بفيضٍ من المشاعر العارمة نحوه.

مشاعرها التي تحركت في الأسابيع الماضية، أدهشتها ولم تستطع أن تقول إن الأمر مريح لها. إنها مستعدة لأن تقسم بأنها، وقبل أن تعرف كارتر، كانت امرأة باردة نوعاً ما. وقبل أن تعرفه كانت مصممة أيضاً على أن تعتقد بأن رغبتها معدومة كما اعترفت بأسى. أردت أن تكون نقيض أمها، فهذا يشكل في عقلها الباطن فرقاً كبيراً بينهما.

- بماذا تفكرين؟

لم تكن تدرك أنه يراقبها، فقالت مراوغة: «من يراني خارجة من هنا بعباءتي لأعود بعد دقيقة بالعباءة نفسها مع حقيبة ملابسي، فسيظنني مجنونة».

ابتسم قائلاً: «يمكنك أن تغتسلي وترتدي ملابسك هنا فغرفتك أخليت لتنظفها الخادمات. على كل حال، أحب رؤيتك تسرّحين شعرك وتتأنقين».

فحملقت فيه مداعبة: «أتأنق؟ سأجعلك تدرك أن بإمكاني أن أستعد في عشر الوقت الذي تحتاجه معظم النساء».

- لن أجادلك في هذا.

وعندما تغيرت تعابير وجهها أدرك على الفور سبب ذلك فوضع صحيفته جانباً وسار إليها وجذبها يوقفها على قدميها: «ليبرتي، لم أتظاهر قط بأنني قديس. وإذا ظننت أنني فعلت هذا من قبل، وأحضرت إحدى صديقاتي إلى الفندق، فأرفع يديّ واعترف بأنني مذنب. أما ما لم أفعله قط، فهو أن أحجز غرفتين منفصلتين».

وعندما أوشكت أن تتكلم، وضع إصبعاً على فمها يسكتها، قائلاً: «وكنت سأفعل هذا سواء رافقتنا جين أم لم تفعل. ثقي بي».

وعندما نطق وجهها بالحقيقة، تغيّر وجهه وأضاف: «زوجتي المستقبلية وأم أولادي ليست كمن عرفتهن في أيام عزوبيتي».

وظهرت نبرة فولاذية في صوته وهو يتابع كلامه: «وهكذا أراك. هذا مختلف. أنت مختلفة. نحن مختلفان. لو أردت العبث، لما توقفت الليلة الماضية فلماذا تظنين أني فعلت؟».

أشاحت ليبرتي بوجهها. كيف تخبره بأن التفكير في أولائك النساء الأخريات... الجميلات والذكيات والناجحات أشبه بطعنة خنجر في قلبها؟ لم تعرف الغيرة قط من قبل فوجدتها مدمرة. لديه الكثير من الذكريات... عن نساء مذهلات الجمال يمكنه أن يقارنها بهن. قال بصوت رقيق حنون: «أنت ما أنت عليه يا ليبرتي. أنا لست كاملاً ولا أنت كذلك. يا إلهي... لم أعد أستطيع أن أعيش مع قديسة، قد لا تصدقين هذا الآن، لكن ما من امرأة أخرى تلائمني مثلك، وما من رجل غيري يصلح لك زوجاً. أنا أريدك، أريد حرارتك، روحك المرحة، طريقتك الجنونية في التفكير، خوفك الدائم، حبك... كل هذا أريده... سواء أكان حسناً أم سيئاً أم عادياً، فهذه هي زوجتي».

أرادت أن تصدقه. . . تلهّفت إلى ذلك بشكل جعلها تشعر بألم في صدرها.

- أريد المحامية المتزمتة في بذلاتها الأنيقة. الرائعة ذات الشعر الأحمر في ثوب يبدو وكأنه خيط عليها. والمرأة التي ستستيقظ بجانبي كل صباح بشعر مشعث وعينين بنيتين ناعمتين كالمخمل. فكري في ذلك يا حبيبتي. احلمي بهذا حتى تقتنعي بذلك. . .

أنهى كلامه وهو يلمس جبهتها برقة. فهمست: «أنت تجعل ذلك يبدو بسيطاً سهلاً».

- آسف إذن.

حدقت إليه بدهشة فقال: «لأنني أعرف أنّ الأمر ليس سهلاً بالنسبة إليك. أما بالنسبة إليّ فهو بسهولة نقص حطبة عندي لأنك ستكونين موجودة لتدفئيني. نعم، ستكونين موجودة».

ابتسم لها بثقة فنظرت إليه بارتياب: «ستكونين موجودة يا حبيبتي، ثقي بذلك وسأعلم متى تصبحين جاهزة».

سألته بدهشة: «وكيف تعلم؟».

- لأنني أعرفك أكثر مما تعرفين نفسك.

- لا أدري إذا كانت هذه الفكرة ستعجبني. فأنا، في الواقع، لا أريدها.

فعاد الفولاذ إلى صوته: «هراء. فهذا هو الواقع، وهي فكرة عليك أن تبدئي بتعويد نفسك عليها».

فقالت تكرر الكلمات التي قالها الليلة الماضية: «إلى أين تتوجه من هنا؟».

تركها وسار إلى سترته فتناولها وحمل حقيبته ثم أخذ حقيبتها: «من هنا، نحن ذاهبان إلى لندن».

* * *

عندما عادت ليبرتي بأفكارها إلى الأشهر القليلة الماضية، أدركت أنها كانت حافلة بمشاعر وتجارب تتغير باستمرار.

عندما تزوج أبوها وجوان في عيد الميلاد، كان كارتر موجوداً ليمسك يدها ويعزّيها حين شعرت بالهجران والوحشة.

عندما رأت أمها في عيد الميلاد، استجمعت شجاعتها وسألت كارتر إذا كان يجب أن يرافقها. لم تعرف ما كانت تتوقعه، لكن كارتر تصرّف مع أمها بظرف بالغ الرّقة. وعندما غادرا الشقة المبالغ في تدفئتها، وتركا المرأة المتململة غير الراضية التي تسكنها، كانت المرة الأولى في حياة ليبرتي التي لم تشعر فيها برغبة في إلقاء نفسها تحت الباص بعد رؤيتها لأمها.

حينذاك سألت كارتر، عن رأيه بأمها، وهما يسيران في الشارع، فوقف وأخذها بين ذراعيه: «إنها المرأة التي أنجبتك، وبهذا تُعتبر أمك. لكنني، على أيّ حال، لا أرى فيك أيّ شبه منها على الإطلاق».

لم يكن بحاجة لأن يقول أكثر. وفي الزيارات التالية، أخذت تلاحظ برهبة، كيف كان يعامل أمها بتهذيب إنما بحزم، رافضاً أن يدعها تتكلم بالسوء عن والد ليبرتي عندما حاولت أن تفعل ذلك. كما أوضح أنه لا يطيق أي نوع من عدم الاحترام لليبرتي أيضاً.

كانت ليبرتي تشعر بالمتعة وهي ترى أمها تلتزم الصمت وتهتم بسلوكها. ومع مرور الوقت، تمكّنت من أن تخطو خطوة إلى الخلف وتتخلّص من بعض المشاعر السلبية التي رافقتها منذ الطفولة.

قالت له ذات يوم، عندما رفض كارتر دعوة أمها لهما إلى حفل عشاء صغير: «كان جيرارد يحاول إرضاءها دوماً. في الواقع، كنت أشعر أحياناً أنه يفضلها عليّ».

ابتسم كارتر لها، وقال بصوت جاف: «هذا مستحيل. من المؤكد أن ذلك الرجل أحمق لا يمكن الثقة بشهادته».

مرت الأسابيع بسرعة غريبة. عندما لا تكون في العمل، تبقى مع كارتر. كان يصطحبها إلى العشاء وإلى المسارح والسينما ودور الأوبرا. زارا معارض الفنون والمتاحف، كما قاما بنزهات في الحدائق العامة وعلى ضفاف التايمس. كانا يتحدثان كما لم تتحدث ليبرتي إلى أحد من قبل. وضحكت، كما أنها بكت مرة وهي تتحدث عن قضية مؤلمة تتناول طفلاً في الرابعة، استلمتها حديثاً.

في أوائل شهر أيار، كان موعد عرس جين الذي سيقتصر على الأقارب المباشرين وبعض الأصدقاء المقرّبين. وسيضم الحفل اثني عشر شخصاً بمن فيهم العروسين. وكانت ليبرتي، بصفتها وصيفة العروس، قد ترتدي ستلبس ثوباً باللونين الأزرق والتبني كما أنها استمتعت بمرافقة جين لشراء الملابس، حيث أقنعتها جين بتجربة ثوب العروس فتملكها شعور غريب إذ بدت فيه كعروس الحكايات ما جعلها تغالب الدموع. وأساءت جين فهم سبب دموعها فقالت لها ببشاشة: «العريسان التاليان أنت وكارتر، وسترين».

أرغمت ليبرتي نفسها على الابتسام ولم تجب. لكن، وفي سريرها تلك الليلة، أخذت تفكر في شعورها، وذلك لأول مرة منذ أسابيع. إنها تحب كارتر، ولم تصدق أن حبها قد يبلغ هذا المقدار. لكن التفكير في الزواج ما زال يخيفها حتى الموت. كان أشبه بالإنذار النهائي. . . عليك أن تقدم على ذلك رغم سوء عاقبته. .

وكان هو يعلم ذلك. كانت تفاجئه أحياناً وهو يتأملها وفي عينيه بريق غريب فيما وجهه غامض خال من أي تعبير. عندئذ، كانت تعلم أنه ينتظر، ولكن إذا نظرت إليه مباشرة، تبدد لمعان عينيه الغريب وعاد كارتر إلى طبيعته مرة أخرى. ولكن إلى متى سينتظر ما يمكنها أن تعطيه؟ كانت تتساءل بكآبة. إلى متى سينتظر، ويتناسى الإحباط الجسدي والعاطفي أيضاً؟ لقد أوضحت له أكثر من مرة أنها ستبقى وفية له مع أنها لا تستطيع

الالتزام بالزواج لكنه تجاهل ذلك. بالنسبة إليه، كان يريد منها كل شيء أو لا شيء. إنه من النوع الذي إذا ما قرر أمراً لا يحيد عنه.

كانت علاقتهما تقف عند حدود الممنوع، وكانت تدرك ما يسببه هذا الوضع من توتر لكارتر، فعاشت في خوف دائم من أن يأتي اليوم الذي يقرر فيه أنه اكتفى ويعطيها إنذاراً. لكنه لم يفعل هذا قط. فهو يحبها. . . ويا للغرابة، هو. . . الرجل الذي يمكنه أن يشير بإصبعه إلى أي امرأة يراها، فتلبيّ الدعوة. ولكن يبدو أنه يحبها حقاً. . .

نظرت ليبرتي إليه وهما يرشفان القهوة في منزل والديه بعد حفلة شواء كبرى أقامتها أمه في العطلة الأسبوعية. كانت تعشق القدوم إلى بيتهم، وتستمتع بمعشرهم الأنيس والمزاح البريء الذي يميز مجالسهم. وقد جعلتها هذه الأيام تشعر بالإيجابية.

- هل أنت جاهزة لتلك النزهة سيراً على الأقدام؟

وجذبها يوقفها على قدميها فيما راحت تحتج. كان هذا اليوم من نيسان رائعاً ودافئاً على غير عادة، وكانا قد صمما على التنزه على الشاطئ قبل العودة إلى المدينة، لكنهما اتخذا قرارهما هذا قبل أن تأكل حتى التخمة.

وعندما توجهت ليبرتي إلى الردهة لتحضر معطفها فتح الباب الخلفي لتدخل الجارة، وهي شابة يعمل زوجها في التنقيب عن البترول. اندفعت إلى المنزل وهي تنادي ماري، بينما حملت بين ذراعيها طفلاً بدثار مبللاً بالدماء، وهو يصرخ عالياً. كان يلعب في الحديقة فوقع وجرح ساقه بقطعة من الأردواز.

ساعد كارتر الأم وطفلها على الصعود بسرعة إلى مقعد سيارته الخلفي وجلست ليبرتي في المقعد الأمامي في طرفة عين. قاد السيارة بسرعة إلى قسم الطوارئ في المستشفى المحلي، فيما راح يتحدث إلى الأم التي صعقها الفزع على ابنها مهدئاً. وبعد دقائق من وصولهم، استقبلهم الطبيب لكن كان عليهم أن ينتظروا حتى يُغسل الجرح ويخاط. في البداية، لم يتوقّف الطفل

عن البكاء، لكن كارتر ابتدأ يلهيه ويداعبه، مظهراً صبراً وتفهماً ما حيّر ليبرتي.

وعندما غادرا بيت أهله مرة أخرى، كان الغسق قد حلّ، إذ أصرّ الطفل على أن يحمله كارتر بنفسه ويضعه في سريره.

ولم ينم الطفل قبل أن يسمع من كارتر ثلاث حكايات ويحصل منه على وعد بزيارته عندما يأتي في المرة القادمة. وعندما خرجا، قالت له ليبرتي بجفاء: «قمت بعمل جيد هنا».

فأجاب ببساطة: «أنا أحب الأطفال. إنهم، في هذه السن، كالحيوانات، يحسون إذا كنت صادقة في عواطفك نحوهم، أو أنك تتظاهرين بذلك. وما ترينه منهم هو ما يشعرون به نحوك بالضبط».

– ومع ذلك، قلت لي حين تعارفنا، إنك لا تريد الزواج وتأسيس أسرة. لم تكن تريد ذلك.

ذكرته بذلك وهما يقفان أمام باب بيت والديه، فهز كتفيه: «ومع ذلك أحب الأطفال وسأبقى كذلك. لكن هذا لا يعني أنني لم أكن راضياً عن حياة العزوبة. يمكنك أن تقولي إنني كنت متزوجاً من عملي في القسم الأول من حياتي العملية، وكنت بحاجة إلى ذلك لأحقق النجاح. ثم عرفتك، فإذا بكل شيء يتغير. وفجأة، لم تعد الحرّية تمثل لي أمراً هاماً».

عادت تفكر في تصرفاته مع ذلك الطفل. الرجل ينبغي أن يكون لديه عدد من الأولاد. ومست منها هذه الفكرة وتراً حساساً. ولم تشعر بأن صوتها كان عدائياً وهي تقول: «ماذا لو عرفتني عندما كنت أصغر سناً؟ عندما كنت مصمماً على أن تركز على عملك، وتكتفي بالعبث مع النساء؟ كيف كنت لتنظر إليّ حينذاك؟».

حدّق إليها لحظة ثم قال بنعومة: «ماذا تريدينني أن أقول؟ أن الأمور كانت لتبقى على حالها بيننا؟ وأنني كنت لأبدي استعداداً للزواج

والاستقرار حينذاك؟ لا أستطيع أن أقول ذلك لأنني لا أدري. الزمن والظروف تجعلنا ما نحن عليه الآن».

حدقت إليه رافعة الرأس وقالت: «الجواب إذن هو (لا)».

– قلت إنني لا أدري. أتمنى أن أكون قادراً على تمييز الجوهرة الكاملة بين الأحجار الأخرى، لكن الشباب مندفع، وكنت متلهفاً للنجاح وبناء مستقبل لي حيث لا أكون مديناً لأحد بسقف يظللني. هذا ما أنا واثق منه، لم أخف ذلك عنك قط، كما لم أخف حقيقة أنني كنت أعبث مع النساء، كما تقولين. لكن، حين عرفتك أصبح ذلك، بين ليلة وضحاها، مملاً تافهاً. لا أستطيع أن أجيبك بثقة عما كان ليحدث لو عرفتك منذ سنوات. أما ما أستطيع أن أتحدث عنه بثقة الآن هو ما أشعر به حالياً، وهذا الشعور سيستمر طويلاً».

حدقت إليه ثم مدّت يدها تلمس ذراعه، قائلة بتعاسة: «آسفة لتعجلي في الحكم».

حيّرها عمق تفهّمه وهو يقول: «إنه ذلك الطفل، جو الصغير، أليس كذلك؟ ليبرتي، تكوين أسرة لا ينتهي دوماً بالآلام والتحرر من الوهم. ملايين الآباء في العالم يربّون أولادهم في أسر آمنة سعيدة لا أثر فيها للطلاق».

– أعلم ذلك. أعلمه جيداً، لكن من الصعب أن أتقبّل هذا.

– أفهمك. لكن، عاجلاً أم آجلاً، عليك أن تخرجي من دور الضحية وتقرري ما تريدين.

فردت عليه بحدة: «لم أفكر في نفسي قط بأنني ضحية على الإطلاق».

– لا؟ حسناً، كنت على وشك أن تخدعيني. تعليلك لعدم الزواج وإنشاء أسرة هو أنك لا تريدين أن يعاني أولادك ما عانيته أنت. أما الجواب لذلك فهو ليس حرمان نفسك من أن تصبحي زوجة وأماً، بل أن

تكوني واثقة تماماً من أنك تزوجت الرجل المناسب، وأن تكتشفي ما هي حياة الأسرة الصحيحة. كما أن هذا لا يعني أن عليك أن تتخلي عن عملك، فيمكنك أن تعملي في الخارج قليلاً أو كثيراً حسب تقديرك بعد انجابك أولاداً.

– وماذا لو لم أستطع إنجاب أولاد؟ ماذا سيحدث؟

– سنبكي قليلاً، وربما نشكو أمرنا إلى الله، ثم نستمر في حياتنا. أنا لا أريدك لأنك ستكونين جهازاً لولادة الأطفال في المستقبل. دعينا نوضح الأمر الآن. إذا رزقنا بأطفال فتلك نعمة من الله، وإذا لم نرزق بهم فلا حول ولا قوة. المهم هو نحن، سنكون موجودين قبل ولادة الأطفال وبعد رحيلهم. عليك فقط أن تساعديهم على أن يصمموا حياتهم حسب رغبتهم، فأنت لا تعيشين حياتك من خلالهم.

إن لديه جواباً عن كل شيء. وكانت لا تزال تتألم من وصفه لها بالضحية فسألته، وهي تدرك أن صوتها يبدو شرساً: «لا بد أنه من الرائع أن يكون الإنسان بهذه الحكمة».

فأجاب راضياً عن نفسه ومتجاهلاً عداءها: «من دون شك. والنتيجة حسنة... حسنة جداً، خاصة عندما أوجه امرأة مسكينة ضالة إنما رائعة الجمال إلى الطريق المستقيم».

مدّت له لسانها فهز رأسه بأسف: «الرجال الحكماء نادراً ما يحصلون على التقدير في حياتهم».

أوشكت أن تنطق بكلمة فظة لولا أن ماري اختارت هذه اللحظة لتفتح الباب، فاكتفت بنظرة لاذعة رمقته بها ثم دخلت إلى البيت. في الحقيقة، سرّها أن ينتهي الحديث بهذا الشكل لأنه هزها للغاية.

وفي ما بعد، وبعد أن وصلت إلى بيتها وودّعها، وجلست في غرفة جلوسها الصغيرة. كانت بحاجة إلى أن تفكر بشكل جاد بما يحصل في

حياتها.

لطالما رفضت التفكير في قضية إنجاب الأطفال، ولم يكن السبب يتعلق بإنجابهم، أو حبها لهم، أو الحياة من أجلهم. وتذكرت فتاة عملت معها فترة، حين قالت إنها لن تجعل من جسدها أبداً جهازاً لتوليد الأولاد فتتشوّه وتسمن. وذهلت ليبرتي وهي ترى امرأة تصف هذا الحدث المعجزة بهذا الشكل، فهي كانت ترى النساء الحوامل دوماً، ببطونهن الضخمة وقد علا الصفاء ملامحهن، يبدين رائعات الجمال.

كما كانت تحب الأولاد في مراحل حياتهم كلها... كانت تحبهم كلهم وتفهمهم. نعم، إنها تفهمهم جيداً. فهي لا تزال تتذكر شعورها وهي صغيرة عاجزة في عالم الكبار. كانت طفولتها مؤلمة، ولعل ذلك عائد إليها جزئياً، لأن هجران أمها لها دمّرها وترك فيها تأثيراً عميقاً. ويبدو أن بقية الأولاد لاحظوا هذه الغرابة في شخصيتها فاعتبروها عجزاً.

ولشدة الحساسية التي نشأت لديها، كانت تجد دوماً أن أولاد الأصدقاء والأقارب يحبونها ويسهل عليهم الإفضاء إليها بأسرارهم ومشاكلهم.

كان قد سمعت أمهات وآباء يتحدثون عن أولادهم بتساهل وهزل. لكنها كانت عرفت أن منع الطفل من اللعب، أو عدم إدخاله على حفلة يمثل للطفل مأساة بقدر خسارة العمل أو العجز عن دفع الفواتير بالنسبة للرجل.

لم يكن لديها مشكلة في أن تحمل أو أن تربي طفلها. إنما المشكلة هي في أن تحضر إلى هذا العالم روحاً صغيرة تكون مسؤولة عنها فيما لو تخلّ عنها الأب.

ستبقى هي دوماً مع ولدها، أما بالنسبة إلى الرجل.. ثلاثة من عشاق أمها على الأقل تركوا أولادهم وبيوتهم. هذا يحدث على الدوام.

وهكذا، ألم تكن على صواب في ما قررته؟ ونظرت في أنحاء الغرفة

المتألقة وكأن الغرف ستعطيها الجواب. حسناً لماذا شعرت بالانزعاج بعد حديثها مع كارتر؟ أتراها أسست حياتها على مبادئ ومفاهيم خاطئة؟ وإذا لم تكن خاطئة تماماً، أفتراها مذنبة لأن تبريراتها كلها باطلة؟ ماذا عن الحب؟ الحب الحقيقي بين امرأة ورجل؟ ذلك النوع من الحب الذي يجمع والدي كارتر، والذي يشعر به والدها نحو جوان، والذي اعترف به كارتر نحوها؟

وماذا عن حبها هي له؟ نهضت وراحت تذرع الغرفة بخطواتها وهي تتخلل شعرها بأصابعها. هل ستهجره يوماً ما بإرادتها؟ هذه الإمكانية بدت مضحكة. هل يمكنها أن تتصور نفسها تحبه طوال حياتها؟ هذا مؤكد. هل فكرة إنجاب أطفال من كارتر، وحمل هؤلاء الأطفال تبهجها؟ وشعرت بوهن في ركبتيها لهذه الفكرة. هل صدّقته حين قال إنه لن يكفّ عن حبها أبداً؟ وتوقفت فجأة. هل صدقته؟ هل صدقته؟ هل أصدقه؟

وانحنت إلى الأمام فيما راح عقلها يعذّبها. هذا السؤال لن يبارح ذهنها أبداً.

وسخر منها حذرها، وراح ينصحها بأن تقول الحقيقة وتنتهي من الأمر. نعم، لقد صدقته. تعتقد أنها صدقته، لكن التفكير في ذلك مخيف للغاية.

عادت تذرع الغرفة بقلق. أتراه غسل دماغها؟ حاولت أن تستعيد كل ما تدربت عليه لكي تميز الحقيقة من الخيال... التمني من الواقع. بإمكانها أن تتجنب الفخ المنصوب لها إذا ما أقنعت نفسها بأنه نصب لها فخاً، لكنه، في الحقيقة، لم يفعل. صحيح أنه تحداها وكان كالشوكة في خاصرتها من بعض النواحي ولم يتزحزح إنشاً واحداً عما يعتقده، ولكنه لم يغسل لها دماغها. لم يكن سوى... كارتر.

لم تكن مستعدة، وعادت تستلقي على الأريكة. إنها بحاجة إلى وقت ليحلل عقلها كل شيء قبل أن تخبره أن شيئاً ما قد تغيّر.

دخلت الحمام، حيث استلقت في مياه الحوض الدافئة فترة أطول مما كانت تنويه. فقد كان ذهنها من النشاط بحيث غرق في التفكير.

كان الاعتراف لنفسها بأنها وصلت إلى نقطة يمكنها فيها أن تثق بكارتر، هو شيء، وأن تخبره بذلك هو شيء آخر. وقطّبت جبينها. إنها جبانة. وأغمضت عينيها وأسندت رأسها إلى حافة الحوض. لم تعهد ذلك في نفسها قط من قبل، لكنه صحيح. كانت في أعماقها جبانة.

كيف يمكنها أن تقدم على خطوة كهذه فتقول له إنني سأتزوجك؟ لا تظن أنها قادرة على ذلك. لا يمكنها ذلك أبداً، أبداً. ومع ذلك، لا يمكنهما الاستمرار بهذا الشكل. وهما يعلمان ذلك. لن ينتظرها، فما من رجل يفعل، ولا يمكنها أن تتوقع ذلك منه... فهذا ليس منصفاً على الإطلاق.

يا له من وضع صعب..! انتصبت جالسة في الحوض، غاضبة من نفسها ومن كارتر والعالم كله. لعلها امرأة صعبة. ورغم كل ما اعترفت به لنفسها في الساعة الماضية، لم تصل إلى أيّ حل.

إنها لا تستحقه. إنه يستحق امرأة مشرقة رائعة غير معقدة تحب الأرض التي يسير عليها، امرأة تعطيه طفلاً كل عام حتى يصبح لديه ما يكفي لتشكيل فريق كرة قدم.

أخذت نفساً غير متوازن. ماذا عليها أن تفعل؟ حفل زفاف جين سيكون محنة من كافة النواحي، وهو سيقام بعد ثلاثة أسابيع فقط؟

١٠ - رغم المفاجآت

اقتراب يوم جين وآدم الموعود، زاد من اقتناع ليبرتي بأنها لن تتحلّ بالشجاعة قط للتحضير لحفل زفاف. كل ما منح شقيقة كارتر البهجة، من اختيار الأغنية، إلى نوع الأزهار. . . إلى لون الغرفة في الفندق، التي ستقام فيها وليمة العرس . . . كل هذا أثار في نفس ليبرتي شعوراً بالذعر لم تستطع التخلص منه رغم محاولاتها. وشعرت بأنّ هذا الأمور ستجعلها تتقيأ من التوتر.

يبدو أن ما من امرأة بهذا الشكل. ونظرت ليبرتي إلى أنحاء الكنيسة الصغيرة التي سيقام فيها الزفاف في اليوم التالي. هي وكارتر ووالداه وجين وآدم ووالدته، جميعهم هنا لإجراء تجربة بملابس العرس. كانت جين ترتعش قليلاً من الإثارة، فيما ارتسمت ابتسامة سعيدة للغاية على وجه أمها، وعلى وجه والدة آدم، وهما تقومان بتوزيع باقات الأزهار على الأعمدة الحجرية للمبنى القديم. وبدا كل شخص سعيداً، كل شخص ما عاداها، وربما ما عدا كارتر.

ألقت ليبرتي عليه نظرة من تحت أهدابها. لم يكن طبيعياً طوال الأسبوع الماضي، لكنها لم تستطع أن تعرف السبب. مراعاته لها واحتفاؤه بها لم يتغيرا رغم أنه خُيّل إليها أكثر من مرة أنه مشغول البال لكنها سرعان ما كانت تعزو السبب إلى نشاط مخيّلتها. ولكن ثمة شيء مختلف! وتملكها خوف شديد، الخوف نفسه الذي جعلها تأرق ليلاً إلى الفجر. إنها لا تستطيع أن تفقده. لا تدري ما ستفعل إذا ما أخبرها أن علاقتهما انتهت.

كانت يداها مشتبكتين بشدة. وعندما شعرت بكارتر يأخذ إحدى يديها ويملّس أصابعها على راحته، أرغمت نفسها على الابتسام والقول بمرح: «أعصاب وصيفة العروس. فكرت في أن على شخص ما أن يكون متوتراً لأن جين تبدو متلهفة للدخول إلى الكنيسة كعروس».

قال بنعومة موافقاً: «نعم، وبشكل غير محتشم».

- ستكون عروساً رائعة الجمال.

وأرادت أن تنتزع يدها من يده لأنها كانت تعلم أنها ببرودة الثلج، برغم التدفئة في الكنيسة ودفء الجو. سيظنها أكثر من مخبولة إذا أدرك أنها تتأثر إلى هذا الحد بمجرد حضورها عرساً لآخرين.

- سيراها آدم كذلك حتى لو لبست الخيش وتلوثت بالرماد. وهذا هو المهم على المدى الطويل.

كانت ابتسامتها طبيعية أكثر هذه المرة وهي تقول: «هذا ما أظنه. كان جميلاً جداً منك أن تقدم لهما تلك الهدية الرائعة».

وكان قد دفع نفقات العرس كلها بما في ذلك نفقات شهر العسل في جزيرة دافئة.

- إنها أختي الصغيرة وهو صديقي المفضّل. بدأ مطعمه ينتعش للتو، أما جين، فالنقود تحدث دوماً ثقباً في جيبها. كما أننا انتظرنا جميعاً عشرة أعوام ليحدث هذا الزواج.

فقالت بابتسامة عريضة: «وتمّت الحكاية».

ولكن عندما ناداهما الكاهن ليوقّعا السجل بصفتهما شاهدي العروس والعريس، تلاشت الابتسامة عن وجهها.

انتهى كل شيء بعد عشر دقائق، وعندما خرجوا من الكنيسة، طالعهم مطر غزير. قالت جين بشكل مأساوي: «لا . . . لم تصح توقعات الأحوال الجوية. يُفترض أن تبقى الشمس مشرقة طوال العطلة الأسبوعية».

ربتت والدة آدم على ذراع كنتها قائلة: «لا تهتمي، يا حبيبتي، من الأفضل أن تمطر الليلة بدلاً من الغد. غداً هو يوم ربيعي رائع».

عندما استيقظت ليبرتي باكراً جداً في الصباح التالي، فيما الفجر يخلي الطريق للشمس الباهتة، فكرت في أن تنبؤات والدة آدم صدقت. وبعد ساعة، كانت السماء زرقاء تسبح فيها غيوم بيضاء تتماشى مع شمس أيار التي راحت تزداد حرارة مع مرور الوقت.

كانت الخطة أن تحضر سيارة في الساعة التاسعة صباحاً لتأخذها إلى منزل كارتر حيث جين. وعندما قُرع الباب في الساعة الثامنة، صعدت من المطبخ إلى الطابق العلوي وهي تفكر في أنها استيقظت عند الفجر.

فتحت الباب متوقعة أن ترى وجه سائق السيارة البشوش، لكنها فتحت فاها وهي ترى كارتر: «صباح الخير يا أفروديت».

هتفت وقد بان العجب على ملامحها: «كارتر؟ ماذا حدث؟ هل جين بخير؟ هل حدث شيء؟».

- لم يحدث شيء. هل يمكنني الدخول؟

أشارت إليه بالدخول، وبعد أن أغلقت الباب خلفه التفتت إليه: «ماذا هناك؟ ظننت أن السيارة ستأتي في التاسعة لتأخذني إلى بيتك؟».

- هذا حسن. هذا ما أردتك أن تظنيه.

فعبست: «ماذا تعني؟».

- ليبرتي. يا حبي الحقيقي.

وأمسك يدها وركع على إحدى ركبتيه أمامها وأخرج من جيبه علبة: «هل ستتزوجينني؟ الآن؟ اليوم؟».

من حسن الحظ أن الباب الصلب خلفها لأنها استندت إليه وقد وهنت ركبتاها.

- أنا... أنا لا...

- لا تفهمين؟

كانت ابتسامته حلوة لكنها رأت في عينيه شيئاً آخر لعله عدم الثقة: «الأمر بسيط يا حبيبتي. أريدك أن تتزوجيني وأعلم أن هذا ما تريدينه أنت أيضاً. لكنني لا أظن أننا إذا عقدنا الزواج بالطريقة التقليدية، فسأستطيع إقناعك بالسير وسط الكنيسة نحو المذبح. بهذه الطريقة، لن يتسنى لك أن تفزعي، ولن تتوتر أعصابك وتهربي مني في آخر لحظة. كل ما عليك أن تفعليه هو أن تقولي نعم».

وفتح العلبة فرأت أروع خاتم قديم مرصع باللؤلؤ والياقوت. كان خاتم أحلامها... إنه ما كانت لتختاره بالضبط. ونظرت إلى كارتر ببلادة. هذا غير حقيقي! من المستحيل أن يحدث شيء كهذا.

- ثوب عرسك وبذلتي في سيارتي، مع نقابك وحذائك وباقة الأزهار وكل ما تحتاجينه. سأساعدك في ارتداء ثوبك وتساعدينني في عقد ربطة العنق. إنها ليست الطريقة التقليدية، لكننا لن نكون زوجين تقليديين على أيّ حال.

- ولكن...

لم تستطع أن تنطق بالكلمات التي تسارعت في ذهنها: «أنا ليس بإمكاني...».

- الثوب والنقاب هما اللذان وقعت في غرامهما يوم كنت تتسوقين مع جين. أما الحذاء وباقة الزهر فقد اخترتهما بنفسي. إذا قلت نعم الآن فسنبقى معاً حتى أضع الخاتم في إصبعك في منتصف النهار وبعد ذلك مدى الحياة. هل تتزوجيني يا ليبرتي؟ وتحبيني؟ وتحملي أولادي وتكبرين في السن معي؟

وفجأة، بدا الأمر سهلاً للغاية، فقالت: «نعم».

نصف الساعة التالية كانت عبارة عن عناق وتمتمات الحب. وأخيراً،

استعادت ليبرتي وعيها فسألته: «ولكن، جين وآدم؟ هذا يوم عرسهما».

- وما زال كذلك، لكن في ما بعد. لقد تأجل إلى ما بعد.

- آه كارتر. ألم يمانعا؟

- يمانعان؟ إنهما قلقان من عدم موافقتك. جين لم تنم طوال الليلة الماضية، وطلبت مني أن أخبرك أن اللوم يقع عليك إذا بدا عليها الإنهاك في يوم عرسها.

- ولكن متى، وكيف. . . .؟

يبدو أنه فهم ما تريد قوله: «خططنا لذلك يوم ذهبنا إلى منزل أبويّ لنتناول الغداء. كنت مختلفة، ونظرت إليّ بشكل مختلف، فعرفت».

نظرت إليه بحيرة: «عرفت؟ عرفت ماذا؟».

فقال برقة: «أن الوقت قد حان. كما عرفت أيضاً أن نجاحي في إقامة عرس في الكنيسة مع كل ما يتطلبه ذلك هو بقدر بقاء كرات ثلج متماسكة في جهنم. وهكذا، تحدثت إلى جين وآدم، ثم قصدنا الكاهن. سيعقد زواجهما في الساعة الواحدة، وسنأخذ مكانهما في منتصف النهار. لكنني لم أجد طريقة أخرى لتدبير الأمر سوى أن أجعلهما يتبادلان معنا موعدي الزفاف، الليلة الماضية. لقد ابتهج الكاهن للغاية عندما وافقت على أن أمنح الكنيسة هبة ضخمة لإصلاح سطحها، رغم أن ذلك يعني أن يؤجل غداءه لأن لديه عرساً آخر في الثانية».

- ولكن ماذا عن التسجيل والإجراءات الأخرى؟

فابتسم: «انتهت. وما فائدة الثراء إذا لم يستطع أن يحرّك الأمور خفية من أجل عرسك؟ أليس كذلك؟».

- لا أصدق. . .

- بل صدقي. بعد ظهر اليوم ستصبحين السيدة بليك.

وأخذها بين ذراعيه يحتضنها بشدة.

- وأبي؟

- إنه ينتظر لكي يسلمك للعريس. وقد أعطاني قائمة باسم كل شخص يظننا نريده أن يكون موجوداً. حفلة وليمة العرس الصغيرة كبرت الآن. وعندما سمعت جين بذلك، أضافت مزيداً من المدعوين هي أيضاً. الفندق مسرور للغاية. بعد الغرفة الصغيرة أصبح لدينا قاعة الرقص مع وجبة رسمية ومقصف عند المساء لأكثر من مئتي شخص.

- هذا عرس حقيقي.

ونظرت إليه وقد توترت أعصابها، ثم مدّت إليه يدها فأمسك بها قائلاً: «قهوة وخبزاً محمصاً. حضّري لنا فطوراً فأنا جائع، فيما أتصل لأدعو الجميع».

- كارتر.

واحتضنها مرة أخرى. سيكون الأمر على ما يرام، وبإمكانها القيام بذلك. وأثناء تناولهما الفطور، سألته مترددة: «هل أخبرت أمي؟».

فقال بجفاء: «ميراندا تمضي إجازة في موناكو مع ما يبدو أنه زوجها السادس».

- ستهدد بجريمة إذا رأت أن أبي يعلم، بينما هي لا تعلم.

- حسناً جداً. لا سبيل إلى أن تكون موجودة فتتكدرين، كما ستنغص على أبيك وجوان سرورهما. أنا سأتصرف معها. سأسألها إذا كانت ستختار حضور عرسك بدلاً من الظفر بذلك الرجل المسكين الذي اصطادته، ولا أظنها ستجادلني.

صدقت ليبرتي كلامه، كلام سيكون سخيفاً من أي شخص آخر ما عدا كارتر. لكنها شعرت بأن أمها ستكون أمامه كالحمل الوديع.

قال مفكراً: «لم يخطر ببالي قط أنني سآكل التوست وبجانبي زوجة المستقبل وذلك صبيحة يوم عرسي. لكن هذا عظيم، أليس كذلك؟».

بادلته الابتسام وقلبها في عينيها: «هذا عظيم. على كل إنسان أن يفعل ذلك».

بعد الفطور، أحضر لها المشتريات الفخمة التي أخبرها عنها فامتلأت غرفتها الصغيرة بالحرير ورائحة الأزهار العابقة.

فتنتها باقة الأزهار المربوطة بشريط عاجي اللون من الساتان والدانتيل وأخذت تشمّها مستمتعة: «إنها رائعة يا كارتر. أنا أعشق الورود».

- أعرف هذا.

وأخذ من يدها الأزهار ووضعها جانباً ثم أخرج علبة مستطيلة من جيبه: «هل ستلبسينه اليوم؟» وأخرج من العلبة السوار الماسي المتألق.

وضعت ذراعيها حول عنقه: «طبعاً، وشكراً. شكراً».

كان وجهها يتألق بشراً.

- وهذه تتلاءم معها؟

- آه، يا كارتر.

وأخذت من يده العلبة الثانية التي أخرجها كساحر يخرج الأرانب من القبعة. في داخلها، رأت قلادة رائعة مرصعة بالماس. رفعت يداً محبة إلى وجهه وهي تقول بصوت مفعم بالحنان: «شكراً».

لقد فهمت الآن أن عطاءه يعني الكثير بالنسبة إليه، وأن عليها أن تقبل هذا منه.

سألها بجفاء ولكن بغمزة من عينيه: «من دون كلمة تعنيف؟ حتى ولا جملة: ما كان لك أن تشتريها؟».

- لا. خصوصاً في يوم عرسنا.

ساعدا بعضهما بعضاً في ارتداء ملابسهما. فارتدت ثوبها الرقيق والمطرز الذي جعل خصرها يبدو أنحف، فيما اعتمر قبعة عالية وارتدى السترة ذات الذيل. وعندما كان يسوّي نقابها، قالت له: «إن رؤية العريس

لعروسه قبل الزفاف فأل سيء».

أخذها كارتر بين ذراعيه على الفور، غير مكترث بالثوب الجميل: «سيتم هذا العرس على طريقتنا الخاصة، أليس كذلك؟ وهي الطريقة المناسبة لنا، ولم نعتمد على الحظ. ما قمنا به لا يؤثر فيه شيء أو شخص إذا لم نسمح نحن بذلك، ونحن لن نسمح به».

فقالت وهي تتشبث به لحظة: «لن نسمح؟».

- راهني على ذلك. ثقي بي... فأنا خبير في هذه الأمور.

فقالت وقد اطمأنت: «أنت إذن الرجل الحكيم؟».

- ها قد عرفت.

وبقي يتحدث إليها إلى حين وصول السيارة التي طلبها من دون أن يمنحها دقيقة لتتحدث عن الماضي.

وعندما توقّفت السيارة أمام الكنيسة، قالت له: «أنا أحبك وأنت تعرف هذا، أليس كذلك؟».

- لطالما عرفت ذلك.

واستطاع أن يضمّن قوله هذا مزيجاً من التواضع والغطرسة، كما بدا صلباً خشناً ذا جاذبية رائعة.

فتح أبوها باب السيارة وابتسم لها ابتسامة عريضة بينما تلألأت الدموع في عينيه وهو يخبرها كم تبدو جميلة رائعة. كانت جوان إلى جانبه، وتعانقت المرأتان إلى أن سلّم كارتر يد ليبرتي إلى من كان أباً لها وأماً طوال حياتها.

- هل ستبقى معها حتى أتسلّمها هناك؟

قال كارتر هذا مازحاً لكن ليبرتي لمحت في عينيه شيئاً أثار غصة في حلقها. أي معاناة سببتها لهذا الرجل المسكين؟ ثم نظرت إلى الكنيسة والمصورين الذين هرعوا في الممر الصغير الذي يؤدي إلى الباب المقنطر

وأدركت أن كارتر يعرفها أكثر مما تعرف نفسها إذ تملكها ذعر بالغ. أمسك أبوها ذراعها بقبضة قوية وقال: «لا تخافي أبداً. ادخلي يا فتاتي الكنيسة وستؤخذ لنا الصور في الطريق».

وعندما رأت كارتر يسير نحو الكنيسة، ثم يتوقف لحظات لتؤخذ له الصور قبل أن يتابع طريقه إلى الداخل، فيما جوان تسرع خلفه بخطواتها القصيرة، أدركت أنه كان على صواب تماماً. إنه عرس غير طبيعي لكنه رائع. وارتسمت ابتسامة على وجهها بزدت بعضاً من ذعرها.

– هل أنت مستعدة يا حبيبتي؟

كان أبوها يبتسم لها فاتسعت ابتسامتها. بجانبها اليوم، الرجلان اللذان تحبهما.

– أنا مستعدة.

قالت هذا بصوت أجش وهي تتساءل لما يبكي الإنسان في حالات الحزن الشديد وكذلك في حالات السعادة البالغة حد الجنون.

عندما دخلت الكنيسة وجدتها محتشدة. وعندما انطلقت أنغام الأورغن لم تبد الدهشة على وجه الكاهن على الإطلاق إذ تصاعد الهتاف والصياح من الحشود.

لا بد أن كارتر شرح له كل الوضع، كما أخذت ليبرتي تفكر وقد سمّرت عينيها عليه حيث وقف طويلاً مزهواً وبجانبه والده. هل طلب من أبيه أن يكون شاهده؟ لم يبدُ هذا معيباً في هذه الأسرة التي رحّبت بها. وكانت ماري قد لعبت دور الأم التي لم تحصل عليها كما عاملتها جين كأخت لها.

عندما سارت نحو كارتر ببطء، راحت تلتفت كلما مدّ لها شخص يده محيياً، فرأت السيدة هاريس جالسة قرب جوان، والمرأتان تبكيان بدموع غزيرة. رأت أصدقاء قدماء، وبعض الزملاء في العمل. وأقارب... لم تستطع أن تصدق ذلك. كل هؤلاء احتفظوا بالسرّ فيما لم تحسّ هي بشيء.

– هل أنت على ما يرام، يا حبيبتي؟

همس أبوه بذلك حال وصولهما إلى كارتر، فأومأت وقد عجزت عن الكلام عندما التفت إليها كارتر ورأت الحب في عينيه.

مد يده إليها، غافلاً عن الكاهن الذي شرع يقول: «لقد اجتمعنا اليوم، والله شاهد...».

ثم أخذها بين ذراعيه وعانقها طويلاً وبقوة قبل أن يمسك بيدها بقبضة حازمة ويواجه الآخرين.

مرّت طقوس الزواج كالحلم. لكن عندما حان الوقت للدخول إلى غرفة التسجيل، رأت ليبرتي آدم وجين التي ارتدت ملابس العرس باستثناء النقاب، ينهضان ليلحقا بهما. وقال كارتر ضاحكاً: «فكرت في أنه من المستحسن أن يكونا شاهدينا كما سنكون نحن شاهديهما».

– آه، يا جين. لم أكن أظنك هنا.

وتعانقت العروسان، وهمست جين: «تسللنا من الباب الخلفي بعد وصولك، فلم أشأ أن أسرق منك عاصفة الأضواء، ولم يكن لديّ وقت لأغيّر ملابسي قبل ابتداء عرسنا. هذا شيء عظيم، أليس كذلك؟ إنه أمر يحدّث به الشخص أولاده وأحفاده».

وابتسمت لها ابتسامة عريضة فبدت كأخيها. مرّ توقيع السجلات بين الضحكات ودموع السعادة. عندئذ، أخرج الرجلان منديلين فأخذت المرأتان تجففان دموعهما، ثم خرج الجميع من الكنيسة إلى حيث الموسيقى المؤثرة التي اختارتها جين.

لم يبق سوى التقاط بعض الصور فوضعت ماري نقاب ابنتها ثم عاد الجميع إلى الكنيسة، وكانت جين قد أصرّت على أن تبقى ليبرتي وصيفة عرسها. وهكذا، عندما عزفت الموسيقى وجدت ليبرتي نفسها تسير في الكنيسة للمرة الثانية. وعندما انضم كارتر إليها في الصف الأمامي بعد أن

أدّى واجبه كشاهد بدا واضحاً أنه لم يفقد روح النكتة. قال لها: «أراك تغيّرت بشكل جذري بعد أن أمضيت شهوراً أحاول أن أقنعك بالدخول إلى الكنيسة كعروس، ها أنت تسيرين في الممر مرتين الآن».

وكانت تتأبط ذراعه، فشدّت عليها قائلة: «يا لي من محظوظة... محظوظة».

عندما غادر الجميع الكنيسة، كانت الشمس ما تزال مشرقة، فالتقطت لهم بعض الصور خارج الكنيسة ثم سارع الجميع إلى الفندق حيث تقام وليمة العرس حيث تم التقاط المزيد من الصور في حدائق الفندق الجميلة.

شعرت ليبرتي وكأنها في حلم لا تريد الاستيقاظ منه. ومع مرور النهار وجدت نفسها مستمتعة بكل دقيقة منه. أثار هذا العرس المزدوج عواطف الجميع. واعترفت معظم النساء الموجودات بأن ما فعله كارتر هو أكثر التصرفات التي سمعوا بها شاعرية، وأشار معظم الرجال، بعد أن رأوا ليبرتي، إلى أنهم يتفهمون لماذا فعل ذلك.

كان كارتر مليئاً بالحيوية والنشاط، وماثله آدم نشاطاً وخفة، وقد جعلا الموجودين ينفجرون ضاحكين للنكات التي روياها عن الصعوبات التي واجهاها في جعل زوجتيهما توافقان على الزواج.

بدا الكل منسجماً تماماً. ووعد والد ليبرتي وزوجته جوان ماري وبول بليك، والدي كارتر، بقضاء إجازتهما الصيفية في بيتهما على الشاطئ بعد إلحاح كبير من والديّ كارتر. كما دعت جوان والدة آدم على غداء الأحد في اليوم التالي.

انتبهت ليبرتي إلى أنها تجلس وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة غبية بعد أن انتهت الوليمة. وعندما التفتت إلى جين ورأت سعادتها تنعكس على وجه شقيقة زوجها، أمسكت بيدها تضغط عليها، قائلة: «شكراً لسخائك بالنسبة إلى يوم عرسك، يا جين».

- بكل سرور.

وأضافت ضاحكة: «إنه مختلف تماماً عن عرسي الأول، فقد تميّز الأول بالأبهة والفخامة».

- ستكونان، أنت وآدم، على ما يرام.

- أعرف هذا.

ومالت نحوها تسرّ إليها: «أنت وكارتر أيضاً. منذ عرفك أصبح رجلاً مختلفاً. وهذا لا يعني أنه لم يكن رائعاً من قبل، فهو أحسن أخ في العالم، وأنا أعني ذلك. لكن قبل أن يعرفك، كانت أعماله، تشغله دوماً. والآن، يبدو أنّ الأمور اتخذت أبعادها الصحيحة».

ابتسمت ليبرتي: «القاؤنا ترك الأثر نفسه على كلينا. كان لدي الكثير مما ينبغي أن أراه بأبعاده الصحيحة، أنا أيضاً. وأكثر من أخيك بكثير».

فقالت جين ضاحكة: «من حسن الحظ أن في هذا الفندق جناحين لشهر العسل، ألا تظنين ذلك؟ هذه المرة لا أود أن يشاركني أحد في الغرفة! هل أخبرك كارتر أين ستقضيان شهر العسل؟ لم يخبر أياً منا».

فهزت ليبرتي رأسها وردّت: «لا، ما عدا أنه مكان سنمضي فيه ستة أسابيع حيث لا نعرف أحداً ولا أحد يعرفنا».

وتنهدت سعيدة، بدا ذلك كالفردوس.

- إنه يحبك حباً جماً كما تعلمين.

فأومأت ليبرتي وقالت بلطف: «نعم. أعلم هذا...».

بعد تناول الطعام، جالوا على المدعوّين يحدّثونهم ويمازحونهم، وعندما عزفت الموسيقى، دخلوا حلبة الرقص ليفتتحوا الرقص بين الهتاف والتصفيق الحاد ما جعل الأرض تهتزّ لكن ليبرتي لم تكد تعي كل هذا وهي ترقص بين ذراعي زوجها.

رقص كارتر بشكل رائع ومتقن فشعرت وكأنها تسبح في الهواء بين

ذراعيه. كانت رائحته والإحساس به يلفانها حتى كادت تذوب بين ذراعيه، فهمس في أذنها: «هذا عذاب. أن أحتضنك بهذا الشكل، مدركاً أنك زوجتي وأصرّ مع ذلك إلى البقاء هنا دقيقة أخرى. لطالما اشتقت إليك وحلمت بك بين ذراعي بهذا الشكل وقد سقط كل حاجز بيننا. ها نحن الآن محاطان بكل هذه الوجوه. لماذا لا يذهبون جميعاً إلى بيوتهم؟».

ضحكت بصوت خافت ونظرت إلى وجهه لترى إن كان يمزح فقالت له برقة: «لكنك تدبرت أمر الفرقة الموسيقية والمقصف ألاّ يكون ذلك قبل العاشرة. لذا، لن يخرج أحد قبل ذلك».

فتأوه: «لا شك أنني كنت مجنوناً».

في النهاية، وبعد أن اعترف الجميع بأنهم أمضوا أجمل سهرة في حياتهم، بدأ الضيوف بالرحيل.

همست ماري في أذن ليبرتي: «أرجو أن تكونا سعيدين كما عشت أنا وبول. كارتر كأبيه تماماً لن يفكر بسوى امرأة واحدة. قد تجدينه صعباً أحياناً، لكنني أعلم أنه سيحبك دوماً من كل قلبه وروحه، وهذا هو المهم حقاً في الحياة، أليس كذلك؟».

أومأت ليبرتي: «هذا صحيح».

سارا مع والدي كارتر، وعندما توجه الإثنان إلى الغرفة التي كان كارتر قد حجزها لهما، استدارت ليبرتي عائدة إلى قاعة الرقص.

-إلى أين أنت ذاهبة، يا سيدة بليك؟

وأمسك بها كارتر وأدارها إليه مضيفاً: «هذه فرصتنا للهرب وسنستغلها. ما زال آدم وجين هنا ويمكنهما أن يودعا بقية الضيوف إذا أرادا. فسنذهب إلى جناحنا».

لم تجادله فقد كانت متلهفة إلى البقاء معه هي أيضاً.

كان جناح شهر العسل فخماً، مطلياً باللونين الذهبي والعاجي، كما

كان الحمام من الاتساع بحيث يصلح لفريق كرة قدم. لكن سرير الأحلام الضخم الفسيح كان قطعة الأثاث الرئيسية في الغرفة.

كانت يداها ترتجفان وهي تحتضنه، وفجأة، شعرت بخجل عارم، فهي تريد أن تسرّه، تريد أن تكون ليلتهما هذه كاملة.

قال لها: «سأمضي بقية حياتي في إسعادك».

فقد الزمن معناه عندما غرقا في عالم السعادة، عالم تشوّقا للسفر فيه بعد طول انتظار. وفقدت ليبرتي كل قدرة لديها على التفكير، ولم تعد تدرك إلاّ شوقها المحرق الذي يكاد يدمرها.

شعرت أنها لا تستطيع أن تتحرك إذ تخدّرت حواسها بعد أن اكتشفت ذلك العالم الجديد الذي قدمه لها فخرست عن الكلام.

وبعد حين، ابتعد عنها برفق ليعود فيجذبها إلى جانبه ويلف ذراعه حولها: «نامي يا حبيبتي، واحلمي بي».

التفتت إليه وأخذت تتأمل وجهه القوي الذي ظنته يوماً صلباً، وإذا بالحنان يفيض من عينيه فتمتمت بصوت ناعس: «أحبك».

ثم استغرقت في النوم.

كانت الغرفة لا تزال مغمورة بظلال الليل عندما استيقظت ليبرتي. كان النور الخفيف، المنبعث من مصباح في الغرفة المجاورة يمدّ الغرفة بما يكفي من الضوء.

بقيت للحظة عاجزة عن التركيز، تستمتع بمشاعر الراحة والدفء والأمان. وفجأة، تلاشى خمولها وهي تفتح عينيها وتلتفت لترى كارتر بجانبها ينظر إليها ثم يقول برقة: «صباح الخير يا أفروديت».

احمرّ وجهها بشكل سخيف، رغم كل ما حصل بينهما، أو ربما بسببه. وسألته بضعف: «كم الساعة الآن؟».

- الساعة الخامسة.

ثم همس: «هل من ندم في ضوء النهار البارد؟».

مضت لحظة أرادت فيها ليبرتي أن تجيب عن كلماته بمرح، أن تدلي بتعليق ساخر لكن شيئاً ما في جمود ذلك الوجه الأسمر منعها.

أراد أن يطمئن، رغم أن هذا قد لا يُصدّق. حبيبها الخشن القوي، كارتر الذي يحكم مملكته الصغيرة بيد من حديد، والذي عُرف بقسوته بحيث يهابه الجميع، يحتاج إلى أن يطمئن؟

قالت وقلبها في عينيها: «أشعر بالندم لأننا لم نفعل هذا من قبل. أنا أحبك يا كارتر، أحبك كثيراً».

ومدت يداً حنوناً لتلامس ذقنه النابتة في وجهه الخشن. وعندئذ، أدركت أن الوقت حان لتواجه آخر أثر من مخاوفها ولم يكن هذا صعباً، فقد محا الحب الذي يشع من عينيه أيّ خوف: «أحبك من كل قلبي وروحي وعقلي وجسدي، أحبك إلى حد يخيفني حتى الموت لأنني لا أستطيع العيش من دونك إذا حدث لك أيّ مكروه، يا كارتر».

- لن يحدث لي أيّ مكروه.

شدّها إليه بعنف، ثم همس في أذنها: «لن يحصل شيء، سنكبر معاً. سنعيش حياتنا بسعادة. سنسافر ونرى العالم، ونرقص تحت ضوء القمر حتى الفجر. سننجب أطفالاً، أطفالاً أصحاء وسنراهم يكبرون آمنين أقوياء في أسرة مثالية تزوّدهم بكل ما يحتاجونه ليكونوا أصحاء متزنين. سنشهد ضحكاً ودموعاً لأن هذا جزء من حياة الأسرة، لكننا سنقوم بكل شيء معاً، مهما خبّأت لنا الحياة من مفاجآت. سيكون الحب دثارنا، يا حبيبتي، حبنا لبعضنا البعض، لأولادنا ولأحفادنا، هل تصدقينني؟».

نظرت إليه بابتسامة متألقة وردّت بحزم: «نعم».

وعندما عاد يعانقها، بادلته عناقه بعناق وحبه بحب، كما ستفعل في ما تبقى من حياتهما.